الإلهام والكشف والرؤى

هل تعد مصادر للأحكام الشرعية ؟

الأستاذ الدكتور/ يوسف القرضاوي
عميد كلية الشريعة والدراسات الإسلامية
مدير مركز بحوث السيرة والسنة

هذا البحث يتعلق بمنهج المعرفة والاستدلال للأحكام الشرعية : أتدخل فيه خواطر الأنفس ، وإلهامات القلوب التي صفت بالرياضة والمجاهدة حتى حسبت أن الحجاب قد كشف لها أو كشف عنها أم أن العمدة هو الدليل الشرعي من الكتاب والسنة وما دلا عليه ؟؟

وفي أي مجال وإلى أي حد يعتمد المؤمن على ذوقه ووجدانه وفراسته وإلهامه ورؤياه ؟

إن الحاجة ماسة إلى كشف اللثام عن الحقيقة في ذلك بين إفراط بعض المتصوفين ، وتفريط المتزمتين الحرفيين ، وبيان الموقف الوسط للربانيين المحققين من علماء القرآن والسنة ليهلك من هلك عن بينة ، ويحيا من حيّ عن بينة .

هذا موضوع يهتم به علماء العقيدة والتوحيد ، وهم الذين يعرفون باسم (المتكلمين) ، لأنه يتصل بطرائق العلم التي يتوصل بها الى المعرفة بحقائق الدين الكبرى من الالوهية والنبوة والمعاد ، ورجال العقيدة يلتقون هنا مع رجال الفلسفة ، في بحثهم حول نظرية المعرفة ، وهل هناك طريق للمعرفة غير العقل والحس ؟ وهى أحد الموضوعات الثلاثة الرئيسة التي تدور حولها الفلسفة قديمها ووسيطها وحديثها ، وهي : الوجود والمعرفة والقيم العليا .

وكذلك يهتم به علماء الأصول ، لأنه يتعلق بتحديد مصادر المرفة للأحكام الشرعية ، وهل هناك مصدر لها غير الكتاب والسنة ، وما دلا عليه من الاجماع والقياس ؟

ويهتم به أيضا علماء التصوف ، بل هو أخص شيء بهم ، وهم أصحابه وفرسانه وهم الذين ينقل عنهم أنهم يعتمدونه مصدرا للتحسين والتقبيح ؟

ولهذا كان تحرير هذا الأمر من المهمات العلمية ، حتى لا تضيع الحقيقة بين الغلاة في النفي والغلاة في الإثبات ، كأكثر الأمور في عالم الفكر ، يفْرِط فيها أناس ويفرِّط فيها آخرون .

وقبل أن نتحدث عن الآراء والاتجاهات في هذا الموضوع لابد لنا أن نحدد (المفاهيم) فإن الحكم على الشيء فرع عن تصوره .

ما الإلهـــام ؟

في القرآن الكريم وردت المادة مرة واحدة ، بصيغة الفعل الماضي ، وذلك في قوله تعالى : « ونفس وما سواها ، فألهمها فجورها وتقواها » (الشمس : ٨) وفسر ذلك (معجم ألفاظ القرآن الكريم) الصادر عن مجمع اللغة العربية بقوله : ألقى فيها إحساسا تفرق به بين الضلال والهدى ، ولعل ذلك ما يعرف في عصرنا بـ (الضمير) .

وما ذكره المعجم مأخوذ مما روى عن مفسري السلف مثل مجاهد وغيره في معنى الآية .

وقال في القاموس المحيط : ألهمه الله خيرا : لقنه إياه .

وقال شارحه الزبيدي في تاج العروس : الإلهام : ما يلقى في الرُّوع بطريق الفيض ، ويختص بما من جهة الله والملأ الأعلى ، ويقال : إيقاع شيء في القلب يطمئن له الصدر ، يخص به الله من يشاء من عباده[١]

وفي لسان العرب : الإلهام أن يلقى الله في النفس أمرا يبعثه على الفعل أو الترك ، وهو نوع من الوحي ، يخص الله به من يشاء من عباده[٢].

وفي شرح (العقائد النسفية) لسعد الدين التفتازاني : الإلهام إلقاء شيء في القلب بطريق الفيض[٣].

وفي (التعريفات) للشريف الجرجاني : الإلهام : ما يلقى في الروُّع بطريق الفيض . وقيل : الإلهام ما وقع من علم وهو يدعو إلى العمل من غير استدلال بآية ولا نظر في حجة ، والفرق بينه وبين الإعلام : ان الإلهام أخص من الإعلام لأنه قد يكون بطريق الكسب ، وقد يكون بطريق التنبيه[٤].

وفي (النهاية) لابن الأثير في مادة (لهم) ذكر حديث « اللهم انى أسألك رحمة من عندك

---

(١) تاج العروس : مادة (لهم) .
(٢) مادة (لهم) من اللسان ، والتعريف مقتبس من (النهاية) لابن الاثير ، كما سيأتى بعد سطور .
(٣) شرح العقائد النسفية مع حواشيها ، ط مصطفى الحلبي ص ٤١ .
(٤) التعريفات للجرجاني ص ٥٧ ط . عالم الكتب ، ببيروت ، تحقيق د . عبد الرحمن عميرة .

تلهمنى بها رشدي »[1] ثم قال : الإلهام : أن يلقي الله في النفس أمرا يبعثه على الفعل أو الترك وهو نوع من الوحى يخص الله به من يشاء من عباده[2].

وفي مادة (حدث) ، ذكر حديث « قد كان في الأمم محدَّثون ، فإن يكن في أمتى أحد فعمر بن الخطاب[3] » قال : جاء في الحديث تفسيره أنهم الملهمون ، والملهم هو الذي يلقى في نفسه الشيء ، فيخبر به حدسا وفراسة وهو نوع يختص به الله به من يشاء من عباده الذين اصطفى ، مثل عمر ، كأنهم حدثوا بشيء فقالوه .[4]

وعرفه العلامة أبو زيد الدبوسي من فقهاء الحنفية ، بقوله : هو ما حرك القلب لعلم يدعو إلى العمل به من غير استدلال[5].

وكثيرا ما يعبر الصوفية عن (الإلهام) بـ (الكشف) لأنه يكشف لهم عن أمور مغيبة عما سواهم ، فهى ظاهرة لديهم ، خافية على غيرهم وستأتى مناقشتهم .

وهذه التعريفات كلها تدور حول معنى أساسي ، وهو أن الإلهام إلقاء معنى أو فكرة أو خبر أو حقيقة ، في النفس أو القلب أو الرّوع ـ سمه ما شئت ـ بطريق الفيض ، بمعنى أن يخلق الله فيه علما ضروريا لا يملك دفعه . أى ليس بطريق التعلم والاكتساب المعهود ، بل هو يفاض على النفس فيضا ، بغير اختيارها ولا إرادتها ، سواء سعت إليه سعيا عن طريق الرياضة الروحية وتفريغ القلب من كل شيء ، كما سيأتى ذلك بعد في كلام الإمام الغزالي ، أم أفيض ذلك عليها كرامة من الله لها ، وخرقا للعوائد من أجلها ، وإن لم تتعمد السعي إليه .

ومن شأن هذا العلم الضروري اذ ألقي في القلب ـ أن يحرك إلى العمل ويبعث على الفعل أو الترك ، كما جاء في بعض التعريفات ، فهو نتيجة وثمرة له .

---

(١) من حديث رواه الترمذي والطبراني والبيهقي عن ابن عباس ، وقال الترمذي : غريب وذكره في ضعيف الجامع الصغير .

(٢) النهاية حـ ٤/٢٨٢ .

(٣) متفق عليه وسيأتي .

(٤) النهاية في غريب الحديث والأثر جـ ١ ص ٣٥٠ ط . عيسى الحلبي .

(٥) نقله الحافظ ابن الحجر في (فتح الباري) حـ ١٦ ص ٤٣ ، ط مصطفى الحلبي .

والتعريفات التي ذكرت أن الإلهام نوع من الوحي يقصد بها : أنها نوع من الوحي بمعناه اللغوي ، وهو الإعلام بخفاء وسرعة ، أو أنه نوع من الوحى بالنسبة للأنبياء ، فهو أحد طرق الوحي المتضمنة في قوله تعالى : « وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا ، أو من وراء حجاب ، أو يرسل رسولا ، فيوحى بإذنه ما يشاء ، إنه عليّ حكيم » (الشورى : ٥١) .

فقوله : (إلا وحيا) يشمل ما كان عن طريق الإلهام والنفث في الرّوع في اليقظة ، وما كان عن طريق الرؤيا المنامية ، فرؤيا الانبياء وحي .

وهذا الإلهام أو الكشف هو ضرب من المعرفة الروحية المباشرة ، التي عرفتها بعض المدارس الفلسفية قديما وحديثا ، وهى المعرفة عن طريق (الحدس) أو (البصيرة) وفي الفلسفة القديمة عرفت بذلك (الغنوصية) .

وفي الفلسفة الحديثة عرف فلاسفة أشهرهم الفيلسوف الفرنسي (هنري برغسون) الذى أطلق عليه : فيلسوف الروح في القرن العشرين .

الالهـــام والتحـــديث :

ويسأل هنا : هل الإلهام هو نفس التحديث الذي جاء في الحديث الصحيح « إنه كان قبلكم محدثون » أو هو غيره ، أو بينهما عموم وخصوص ؟ .

الذي نقلناه من كلام صاحب (النهاية) يدل على أنهما بمعنى واحد ومثل ذلك ما ذكره شيخ الإسلام إسماعيل الهروي صاحب (منازل السائرين إلى مقامات إياك نعبد وإياك نستعين) فهو لم يفرق بينهما ، وذهب إلى أنهما شيء واحد . وقد جاء في عدة روايات تفسير التحديث بالإلهام .

ولكن شارح (المنازل) الإمام ابن القيم في كتابه (مدارج السالكين) خالف الهروي ، ورأى أن بين الالهام والتحديث عموما وخصوصا ، فالتحديث أخص ، والإلهام أعم ، فكل تحديث إلهام ، وليس كل إلهام تحديثا .

قال : التحديث أخص من الإلهام ، فان الإلهام عام للمؤمنين بحسب إيمانهم ، فكل مؤمن فقد ألهمه الله رشده الذي حصل له به الإيمان . فأما التحديث : فالنبي صلى الله عليه

وسلم ، قال فيه : « إن يكن في هذه الأمة أحد فعمر » يعني من المحدثين . فالتحديث إلهام خاص ، وهو الوحي إلى غير الانبياء ، إما من المكلفين ، كقوله تعالى : « وأوحينا الى أم موسى أن أرضعيه » (القصص : ٧) وقوله : « وإذ أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بي وبرسولي » (المائدة : ١١١) واما من غير المكلفين ، كقوله تعالي : « وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتاً ومن الشجر ومما يعرشون » (النحل : ٢٩) فهذا كله وحي إلهام[1].

الإلهـــام والفـراســـة :

ومما له صلة بالإلهام : الفراسة ، فما معنى الفراسة ؟ وما العلاقة بينها وبين الالهام ؟ يقول الراغب في كتابه (الذريعة إلى مكارم الشريعة) :

وأما الفراسة : فالاستدلال بهيئات الإنسان وأشكاله وألوانه وأقواله على أخلاقه وفضائله ورذائله ، وربما يقال : هي صناعة صيادة لمعرفة أخلاق الإنسان وأحواله ، وقد نبه الله تعالى على صدقها بقوله تعالى : « إن في ذلك لآيات للمتوسمين » (الحجر : ٢٧٥) ، وقوله : « تعرفهم بسيماهم » (البقرة : ٢٧٣) وبقوله : « ولتعرفنهم في لحن القول » (محمد : ٣٠) .

والضرب الثاني : من الفراسة يكون بصناعة متعلَّمة ، وهى معرفة ما بين الألوان والأشكال وما بين الأمزجة والأخلاق والأفعال الطبيعية ، ومن عرف ذلك وكان ذا فهم ثاقب ، قوي في الفراسة ، وقد علم في ذلك كتب ، فمن تتبع الصحيح منها طلع منها على صدق ما ضمنوه ، والفراسة ضرب من الظن ، وقد سئل بعض محصلة الصوفية عن الفرق بينهما ، فقال : الظن بتقلب القلب ، والفراسة بنور الرب تعالى ، وكل من قوى فيه نور الروح المذكور في قوله تعالى : « ونفخت فيه من روحي » (الحجر : ٢٩) ، كان ممن وصف بقوله تعالى : « أفمن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهد منه » (هود : ١٧) وكان ذلك النور شاهدا منه أصاب فيما حكم به .

---

(١) مدارج السالكين حـ ١ ص ٤٤ ، ٤٥ .

ومن الفراسة : علم الرؤيا وقد عظم الله أمرها في جميع الكتب المنزلة[1].

والراغب هنا لا يفرق بين الإلهام والفراسة والتحديث .

وأما الهروي في (المنازل) فقد جعل مقام الإلهام فوق مقام الفراسة ، لأن الفراسة ربما وقعت نادرة ، واستصعبت على صاحبها وقتا ، واستعصت عليه ، والإلهام لا يكون إلا في مقام عتيد .

وناقش ابنُ القيم الهرويَّ في ذلك فقال :

وأما جعله فوق مقام الفراسة : فقد احتج عليه بأن الفراسة ربما وقعت نادرة كما تقدم ، والنادر لا حكم له . وربما استعصت على صاحبها واستصعبت عليه فلم تطاوعه ، والإلهام لا يكون الإ في مقام عتيد ، يعنى في مقام القرب والحضور .

والتحقيق في هذا : أن كل واحد من « الفراسة » و « الإلهام » ينقسم إلى عام وخاص ، وخاص كل واحد منهما فوق عام الآخر ، وعام كل واحد قد يقع كثيرا ، وخاصه قد يقع نادرا ، ولكن الفرق الصحيح : أن الفراسة قد تتعلق بنوع كسب وتحصيل . وأما الإلهام فموهبة مجردة ، لا تنال بكسب ألبتة[2] . »

مواقف العلماء من الإلهام :

وإذا عرفنا حقيقة الإلهام ، بقي علينا أن نعرف مواقف أهل العلم المسلمين ـ من متكلمين وأصوليين وفقهاء ومحدثين ـ من الإلهام ، ومدى حجيته أو مصدريته للمعرفة ، ومدى الثقة بما يأتى عن طريقه من معارف وأفكار .

ونستطيع أن نقسم هذه المواقف إلى ثلاثة :

(١) موقف النفاة الرافضين للإلهام .
(٢) موقف المثبتين القائلين بحجية الإلهام .
(٣) موقف المتوسطين بين الفريقين .

---

(١) الذريعة إلى مكارم الشريعة للراغب الاصفهاني ١٨٦ ـ ١٨٨ ، تحقيق د . أبو اليزيد العجمي ، نشر دار الصحوة بالقاهرة .
(٢) مدارج السالكين جـ ١ ص ٤٥ .

موقف النفاة المنكرين للالهام :

ومن الانصاف أن أبادر هنا فأقول : إني لم أجد من ينفى الإلهام نفيا كليا وينكره إنكارا مطلقا . .

بل النفي منصب على الاعتداد به أصلا ودليلا شرعيا ، واعتباره حجة مستقلة، بحيث يستدل به على الحق والصواب في باب المعارف والاعتقادات، وعلى مشروعية الفعل أو الترك في باب التعبدات والمعاملات .

وذكر العلامة النسفي في « عقائده » المشهورة لدى أهل السنة من الأشاعرة والماتريدية، أن أهل الحق حصروا أسباب العلم اليقيني للخلق في ثلاثة :

١ ـ الحواس السليمة ٢ ـ والخبر الصادق ٣ ـ والعقل

* ويريد بالحواس السليمة الخمس المعروفة .
* وأما الخبر الصادق فهو نوعان : الخبر المتواتر وهو الثابت على ألسنة قوم لا يتصور تواطؤهم على الكذب، وخبر الرسول المؤيد بالمعجزة .
* والعقل منه ما هو ضروري وما هو نظري .

ثم قال النسفي :

« والإلهام ليس من أسباب المعرفة بصحة الشيء عند أهل الحق »

وقال الشارح التفتازاني :

« الظاهر أنه أراد أن الإلهام ليس سببا يحصل به العلم لعامة الخلق ويصلح للإلزام على الغير، وإلا فلا شك أنه قد يحصل به العلم .[1] »

ونقل الشوكاني عن القفال قوله :

« لو ثبتت العلوم بالإلهام لم يكن للنظر معنى. ونسأل القائل بهذا عن دليله، فان احتج بغير الإلهام فهو ناقض قوله. أ هـ

قال الشوكاني : ويجاب عن هذا الكلام بأن مدعي الإلهام لا يحصر الأدلة في الإلهام، حتى يكون استدلاله بالإلهام مناقضا لقوله. نعم إن استدل على إثبات الإلهام بالإلهام كان ذلك

---

(١) العقائد النسفية بشرحها وحواشيها . ط . مصطفى الحلبي ص ٤١ .

مصادرة على المطلوب، لأنه استدل على محل النزاع بمحل النزاع .

ثم على تقدير الاستدلال لثبوت الإلهام بمثل ما تقدم من الأدلة، من أين لنا أن دعوى هذا الفرد لحصول الإلهام له صحيحة ؟١ [١].

ونقل في (مسلّم الثبوت) عن بعض العلماء، واختاره محقق الحنفية العلامة الكمال ابن الهمام : أن الإلهام ليس بحجة مطلقا، لا في حق الملهم نفسه، ولا في حق غيره، وعلل ذلك بانعدام ما يوجب نسبته إلى الله تعالى[٢]. أى ليس هناك ما يدل على أنه من عند الله تعالى. فربما غلط أو توهم، أو خال فتخيل. ولا معصوم بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وذكر صاحب (مسلّم الثبوت) قولا آخر نسب إلى عامة العلماء، وهو أن الإلهام حجة على الملهَم فقط دون غيره. وعلل ذلك شارحه بقوله :

« لعل وجهه أن إلهامهم (أى الأولياء) وإن كان حجة قاطعة، إلا أنه لا يجب عليهم دعوة الخلق إليه، من حيث إنه الهام، ولا على الخلق تصديقهم والحجة فرع التصديق .[٣]

وسيأتى مزيد مناقشة لذلك .

ويبدو أن موقف النفاة الرافضين للالهام هنا، كان رد فعل لموقف المتصوفة الذين غلوا في إثبات الالهام، وزعموا أن له حجية ثابتة ومصدرية مستقلة للأحكام الشرعية، فنفى ذلك العلماء المتمسكون بالكتاب والسنة وأنكروه .

المغالون في إثبات الإلهام وحجيته واعتباره :

أما الفئة الثانية فهي التي غلت في إثبات الإلهام، وفيما له من حجية شرعية : علمية وعملية، بحيث يستدل به على سلامة الاعتقاد، وسداد القول ، وصحة العمل، واستقامة المنهج .

وهؤلاء هم المنحرفون من دعاة التصوف أو أدعيائه على الحقيقة، وليس كل الصوفية معهم

---

(١) ارشاد الفحول ص ٢٤٩ .

(٢) مسلم الثبوت مع شرحه فواتح الرحموت ، المطبوع مع المستصفى للغزالي حـ ٢ ص ٣٧١ .

(٣) المصدر نفسه .

في ذلك، فإن الصوفية الأوائل ملتزمون بالكتاب والسنة، كما سنبين بعد، وإنما هؤلاء قوم لم يتحصنوا بمحكمات الشرع، فمالت بهم رياح البدع القولية والعملية يمينا وشمالا، فاعتمدوا على المتشابهات وأعرضوا عن المحكمات، وهذا أصل الزيغ والغلو .

الإلهام ليس بحجة شرعية :

وهؤلاء قد رد عليهم الأصوليون بأن الإلهام ليس بحجة، سواء في باب المعارف والاعتقادات، أم باب الأعمال والتعبدات، وتظاهر على ذلك علماء أصول الدين وعلماء أصول الفقه، وردوا على من زعم أنه حجة ودليل شرعي، وأبطلوا كل ما استدلوا به .

أما في باب المعرفة والاعتقاد فيذكر « النسفي » في « عقائده » المشهورة والمعتمدة لدى المتأخرين من الأشاعرة والماتريدية، وهي من الكتب التي كانت - ولا تزال - تدرس بالأزهر : أن أسباب العلم للخلق ثلاثة :

الحواس السليمة، والعقل، والخبر الصادق، ومنه خبر الرسول المؤيد بالمعجزة .

وبعد أن حصر أسباب العلم اليقيني في هذه الثلاثة قال : والالهام ليس من أسباب المعرفة بصحة الشيء عند أهل الحق .[1]

وأما في باب الأعمال والتعبدات، فيقول الإمام أبو زيد الدبوس من أئمة الحنفية : الذي عليه الجمهور : إن الإلهام لا يجوز العمل به الا عند فقد الحجج كلها، في باب المباح، فقيد جواز العمل به بقيدين :

الأول : ألاّ يوجد أى دليل شرعي في المسألة، لا كتاب ولا سنة ولا إجماع ولا قياس .

الثاني : أن يكون ذلك في باب المباح، أما الإيجاب أو الاستحباب، أو التحريم أو الكراهة، فلا يعتمد فيها على إلهام ملهم، ولا كشف ولي، بل لابد من دليل شرعي معتمد .

---

(١) العقائد النسفية مع شرحها ص ٤١ ط . مصطفى الحلبي .

حجج المحققين من أهل السنة :

قال الدبوسي :

وحجة أهل السنة ـ يعنى في عدم الاستدلال بالإلهام في الأحكام ـ الآيات والنصوص الدالة على اعتبار الحجة :

يعني مثل قوله تعالى : « قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين » (البقرة : ١١١) « نبئونى بعلم إن كنتم صادقين » (الأنعام : ١٤٣) « قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ؟ إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرصون » (الأنعام : ١٤٨) وغيرها .

قال : والحث على التفكر في الآيات ، والاعتبار والنظر في الأدلة ، وذم الأماني ، والهواجس والظنون ، وهي كثيرة مشهورة .

ب ـ وأضاف إلى ذلك : بأن الخاطر قد يكون من الله ، وقد يكون من الشيطان ، وقد يكون من النفس ، وكل شيء احتمل ألا يكون حقا لم يوصف بأنه حق[1] .

جـ ـ ومما يؤيد ذلك ما جاء في الحديث المشهور : « إن للملك لمة بقلب ابن آدم ، وللشيطان لمة[2] » فكيف يستطيع غير المعصوم أن يميز بين لمة الملك ولمة الشيطان ؟

وفرق بعضهم بينهما : بأن الخاطر الذي يكون من الحق يستقر ولا يضطرب والذي يكون من الشيطان يضطرب ولا يستقر ، ولكن هذه التفرقة نفسها تحتاج الى دليل شرعي ، فالأولى ما قاله ابن السمعاني : ان كل ما استقام على الشريعة المحمدية ، ولم يكن في الكتاب والسنة ما يرده ، فهو مقبول . وإلا فمردود ، يقع من حديث النفس ، ووسوسة الشيطان .

ثم قال : ونحن لا ننكر أن الله يكرم عبده بزيادة نور منه ، يزداد به نظره ، ويقوي به رأيه ، وإنما ننكر أن يرجع إلى قلبه بقول لا يعرف أصله ، ولا نزعم أنه حجة شرعية ، وإنما هو نور يختص الله به من يشاء من عباده ، فإن وافق الشرع كان الشرع هو الحجة[3]. أ هـ .

---

(١) نقله في فتح الباري حـ ١٦ ص ٤٤ ط . مصطفى الحلبي .

(٢) عزاه في الجامع الصغير إلى الترمذي والنسائي وابن حبان في صحيحه عن ابن مسعود ، وقال الترمذي ، حسن غريب . (فيض القدير حـ٢/٥٠٠) .

(٣) فتح الباري حـ ١٦ ص ٤٤ . ط . مصطفى الحلبي .

وأضاف العلامة الفناري الحنفي ـ في كتابه (فصول البدائع) في أصول الفقه ـ أربعة أوجه في إبطال حجية الإلهام :

أولا : إنه معارض بالمثل ، (بمعنى أن يحتج زيد بإلهامه ، فيعارضه عمرو بإلهام مثله ، ولا مزية لأحدهما على الآخر) .

ثانيا : أنه ملتبس بالهواجس والوساوس ، فلا يتبع إلا إذا كان على وفق الحجج الشرعية ، كيف وإذا وجب رد الحديث المخالف لكتاب الله ، فرد غيره أولى !

ثالثا : قوله تعالى : « ولا تقف ما ليس لك به علم » (الإسراء : ٣٦) ونحوه (أي من الآيات التي تدعو إلى طلب البرهان ، وتحث على النظر والتدبر ، وترفض تقليد الآباء ، وطاعة الكبراء ونحوها) .

رابعا : دلالة الإجماع على عدم جواز (قبول) قول الرسول صلى الله عليه وسلم (أي رسول) إلا بعد إظهار المعجزة ، وإلا لاشتبه النبي بالمتنبىء وقبول قول المتنبىء كفر[1] اهـ .

شبهات القائلين بحجية الإلهام في الأحكام الشرعية :

ذكر الدبوسي عن بعض المبتدعة أن الإلهام حجة في الشرع ، وكذلك نقل صاحب (فصول البدائع في أصول الشرائع) والزركشي في (البحر) والشوكاني في (ارشاد الفحول) وغيرهم .

ومجمل ما استند إليه هؤلاء المبتدعة ما يأتي :

١ ـ إن الله تعالى يقول : « فألهمها فجورها وتقواها » (الشمس : ٨) فبين أن النفوس ملهمة .

٢ ـ ويقول : « وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتا . . » أي ألهمها حتى عرفت مصالحها ، فيؤخذ منه مثل ذلك للآدمي بطريق الأولى .

٣ ـ ما جاء في الحديث الذي رواه الترمذي وغيره « اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله »

---

(١) فصول البدائع في أصول الشرائع للعلامة الفناري جـ ٢ ص ٣٩١ .

ومن ينظر بنور الله لا يخطيء ولا يضل .

٤ ـ قوله صلى الله عليه وسلم لوابصة « استفت قلبك وإن أفتاك الناس وأفتوك وأفتوك » فجعل شهادة قلبه حجة مقدمة على الفتوى .

٥ ـ حديث « قد كان فيما قبلكم من الأمم محدثون »[1] والمحدث كما هو الذي يحدث في سره وقلبه بالشيء فيكون كما حدث به . وقد يكون ذلك بخطاب من الملأ الأعلى ، يسمع فيه صوتا أو لا يسمع ، أو بصورة يراها بعين بصره أو قلبه ، أو يكون إعلاما من الله له بلا واسطة ، فينكشف له المجهول ، ويتجلى له المغيب والمستور ، تكريماً من الله لأوليائه وأصفيائه ، كما كرم أنبياءه بالوحي والمعجزة .

٦ ـ القياس على الرؤيا الصادقة ، وبخاصة رؤيا الرسول صلى الله عليه وسلم ، فقد أخذ بعضهم من حديث « أن الشيطان لا يتمثل بي » ان من تمثلت صورته صلى الله عليه وسلم في خاطره من أرباب القلوب ، وتصورت له في عالم سره إنه يخاطبه ويكلمه ، فإن ذلك يكون حقا ، بل ذلك أصدق من مرأى غيرهم ، لما منّ الله به عليهم من تنوير قلوبهم[2] .

٧ ـ قصة العبد الصالح الذي ذكره الله في سورة الكهف ، والمعروف باسم الخضر عليه السلام ، مع كليم الله موسى ، أحد أولي العزم من الرسل ، وقد أمره الله تعالى أن يتبع الخضر في إلهاماته ، وإن خالفت ظاهر الشرع ، وقد اعترض عليه موسى في مواقف ثلاثة لا يتفق تصرفه فيها مع أحكام الشريعة الظاهرة ، وكان الحق مع الخضر في المسائل الثلاث ، كما بين ذلك القرآن الكريم ، وذلك أن موسى كان معه علم الظاهر ، وكان مع الخضر علم الباطن ، وهو (علم لدني) يعلمه الله من يشاء من عباده ، كما قال تعالى عن الخضر ﴿ وعلمناه من لدنا علما ﴾ (الكهف : ٦٥) .

الرد على هذه الشبهات :

ولا حجة في شيء مما استند إليه هؤلاء :

١ ـ أما آية ﴿فألهمها فجورها وتقواها﴾ فلها معنيان :

---

(١) فتح الباري حـ ١٦ ص ٤٤ ط . مصطفى الحلبي .

(٢) فتح الباري ، حـ ١٦ ص ٤٤ ، ط . مصطفى الحلبي .

الأول : ان الاستعداد للفجور والتقوى أمر ركزه الله في الفطرة . فالإنسان قد خلق مزودا باستعدادات متساوية للخير والشر ، والهدى والضلال ، بحكم ازدواج طبيعته وخلقه من طين الأرض ونفخة الروح .

والثاني : ان معنى « ألهمها » بيّن لها ، وعرّفها إياهما ، بحيث تميز رشدها من ضلالها ، كما جاء ذلك عن مفسري السلف[1] ، والآية على ذلك نظير قوله تعالى : ﴿وهديناه النجدين﴾ (سورة البلد : الآية : ١٠) ، وقوله : ﴿ إنا هديناه السبيل اما شاكرا وإما كفورا ﴾ (الإنسان : ٣) .

على أن الإلهام في الآية إلهام عام لكل نفس ، والإلهام الذي يحتجون به وله إلهام خاص بأرباب القلوب ، كما يقولون ، فلا دليل في الآية ، ولا شبه دليل .

٢ ـ وأما آية ﴿وأوحى ربك إلى النحل﴾ فإن الله يلهم كل كائن حي ما تقوم به حياته ، وما يهتدي به إلى بقائه وحاجته كما قال تعالى ﴿الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى﴾ (طه : ٥٠) .

وقد ألهم الله تعالى الدواب والطيور والحشرات ، ما تدبر به أمر نفسها ونوعها ، وهذا من دلائل ربوبيته سبحانه لكل شيء . والإنسان لم يحرم هذا النوع من الهداية والإلهام ، وإلا فمن ألهم الطفل منذ يولد ـ كيف يلتقم ثدي أمه ؟ ومن علمه كيف يزرع ويصنع ، وكيف يستفيد من تجارب غيره ؟ فأما الاستدلال بالآية على أن بعض الناس يلهم ويحدث بحيث يعد إلهامه حجة في الشرع ، فلا .

٣ ـ وأما حديث « اتقوا فراسة المؤمن ، فإنه ينظر بنور الله » فهو لم يصل إلى درجة الصحة

---

(١) انظر : روح المعاني حـ ٣٠ ص ١٤٣ .

التي يحتج بها[1] . وعلى التسليم بصحته ، فمعنى أنه ينظر بنور الله : صدق نظره في الناس والحوادث ، فهو قد يرى شخصا لأول مرة فيشك فيه ، ويظهر ذلك صحيحا وتصدق الوقائع نظره .

وقد قال أحد الأعراب : اني إذا نظرت إلى الرجل من قفاه عرفت خلقه .
قيل له : فإذا رأيت وجهه ؟
قال : ذاك كتاب اقرؤه !

فهذه فراسة فطرية ، وهناك فراسة تكتسب بالتعلم والتحصيل ، كما نقلنا ذلك من قبل عن الراغب الاصفهاني .

على أنا لا ننكر أن للإيمان والعبادة والتقوى والمجاهدة آثارها في جلاء مرآة النفس ، وصدق فراستها وحدسها ، فهذا ما قامت عليه الأدلة ، وينبغي أن يكون موضع اتفاق ، إنما الخلاف في الاحتجاج بالفراسة ونحوها على الأحكام الشرعية .

حديث « استفت قلبك وإن أفتاك المفتون » :

وأما حديث وابصة « استفت قلبك وإن أفتاك المفتون »[2] وما في معناه ، والاستدلال به على أن فتوى القلب مقدمة على فتوى المفتي بحكم الشرع ، فهو استدلال مردود ، وتحريف

---

(١) رواه الترمذي عن أبي سعيد واستغربه ، وكذا البخاري في التاريخ . ورواه الطبراني وابن عدي والحكيم عن أبي أمامة ، وابن حرير في تفسيره عن أبن عمر ، قال السخاوي ، بعد ما ساق هذه الطرق : وكلها ضعيفة ، وفي بعضها ما هو متماسك لا يليق مع وجوده الحكم على الحديث بالوضع . وهو بهذا يرد على ابن الجوزي حيث حكم على الحديث بالوضع . قال المناوي : وحكم السخاوي على الكل بالضعف غير صواب . فقد قال الهيثمي : اسناد الطبراني حسن . وذكر المؤلف ـ يعني السيوطي ـ في الدرر ان الترمذي خرجه من حديث ابن عمر وثوبان ، بزيادة « وينطق بتوفيق الله » وذكر في تعقيبات الموضوعات : ان الحديث حسن صحيح . فيض القدير (حـ ١/١٤٤) . وذكر الألباني الحديث في ضعيف الجامع الصغير ، فوافق السخاوي .

(٢) رواه الامام أحمد والدارمي في مسنديهما ، والبخاري في التاريخ ، وحسنه النووي ، في رياض الصالحين ، وتبعه السيوطي فرمز له بالحسن في جامعه الصغير .

للكلم عن مواضعه .

أولا : لأن الحديث ـ كما نقل المناوي عن حجة الإسلام ـ لم يردّ كل أحد لفتوى نفسه ، وإنما ذلك لوابصة في واقعة تخصه[1] .

أي أن الحديث لم يجيء بلفظ عام ، بحيث تؤخذ منه قاعدة عامة ، بل جاء في واقعة معينة لشخص معين ، ووقائع الأعيان لا عموم لها ، كما هو مقرر في الأصول .

ثانيا : على فرض العموم ، فموضع هذا فيما لا نص فيه ولا حجة شرعية ، وإلا وجب اتباع الشرع ، قال تعالى : ﴿اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء﴾ (الأعراف : ٣) وقال سبحانه : ﴿فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون﴾ (النحل : ٤٣) فكيف يوجب الله تعالى سؤالهم ثم نترك أجوبتهم وفتاواهم إلى فتاوي قلوبنا ؟.

وقال تعالى : ﴿فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول﴾ (النساء : ٥٩) . ولم يقل : ردوه إلى خواطركم وأحاديث قلوبكم .

ثالثا : ان المفتي يبني فتواه على ظاهر الحال كما يعرضه له السائل ، وقد يكون هناك أمور خفية لا يطلع عليها ، لعله لو عرفها لغير فتواه . والمستفتي هو الذي يعرفها ، ولذلك تظل نفسه قلقة غير مطمئنة بما ألقي إليه من فتوى ، ففتوى المفتي هنا مثل قضاء القاضي ، الذي يحكم بالظاهر ، ويقضي على نحو ما يسمع ، ولكنه لا يجعل الحرام حلالا لمن استقضاه إذا كان الحن بحجته من خصمه صاحب الحق .

وبهذا يكون الاستدلال بالحديث على حجية الخواطر والإلهامات في مواجهة أدلة الشرع ، استدلالا باطلا .

يقول العلامة ابن رجب الحنبلي في شرح حديث وابصة « استفت قلبك » :

« فدل حديث وابصة وما في معناه على الرجوع إلى القلوب عند الاشتباه ، فما سكن إليه القلب ، وانشرح إليه الصدر ، فهو البر والحلال ، وما كان خلاف ذلك فهو الإثم والحرام ، وقوله في حديث النواس بن سمعان : « الإثم ما حاك في الصدر وكرهت أن يطلع

---

(١) فيض القدير حـ ١/٤٩٥ .

عليه الناس » اشارة إلى أن الإثم ما أثر في الصدر جرحا وضيقا وقلقا واضطرابا فلم ينشرح له الصدر ، ومع هذا فهو عند الناس مستنكر بحيث ينكرونه عند اطلاعهم عليه ، وهذا أعلى مراتب معرفة الإثم عند الاشتباه ، وهو ما استنكره الناس : فاعله وغير فاعله ، ومن هذا المعنى قول ابن مسعود رضي الله عنه : ما رآه المؤمنون حسنا فهو عند الله حسن . وما رآه المؤمنون قبيحا فهو عند الله قبيح .

وقوله في حديث وابصة وأبي ثعلبة « وإن أفتاك المفتون » يعني أن ما حاك في صدر الإنسان فهو إثم وإن أفتاه غيره بأنه ليس بإثم ، فهذه مرتبة ثانية ، وهو أن يكون الشيء مستنكرا عند فاعله دون غيره ، وقد جعله أيضا إثما ، وهذا إنما يكون إذا كان صاحبه ممن شرح صدره للإيمان ، وكان المفتي يفتي له بمجرد ظن ، أو ميل إلى هوى ، من غير دليل شرعي ، فأما ما كان مع المفتي به دليل شرعي ، فالواجب على المفتى الرجوع إليه وإن لم ينشرح له صدره ، وهذا كالرخص الشرعية مثل الفطر في السفر والمرض وقصر الصلاة في السفر ونحو ذلك ، مما لا ينشرح به صدور كثير من الجهال فهذا لا عبرة به .

وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم أحيانا يأمر أصحابه بما لا تنشرح به صدور بعضهم فيمتنعون من قوله فيغضب من ذلك ، كماأمرهم بفسخ الحج إلى العمرة ، فكرهه من كره منهم ، وكما أمرهم بنحر هديهم والتحلل من عمرة الحديبية فكرهوه وكرهوا مفاوضته لقريش على أن يرجع من عامه وعلى أن من أتاه منهم يرده إليهم .

وفي الجملة فما ورد النص به ، فليس للمؤمن إلا طاعة الله ورسوله ، كما قال تعالى : ﴿وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم﴾ (الاحزاب : ٣٦) وينبغي أن يتلقى ذلك بانشراح الصدر والرضا فإن ما شرعه الله ورسوله يجب الإيمان والرضا به والتسليم له ، كما قال تعالى : ﴿فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما﴾ (النساء : ٦٥) .

وأما ما ليس فيه نص من الله ولا رسوله ولا عمن يقتدى بقوله من الصحابة وسلف الأمة ، فإذا وقع في نفس المؤمن المطمئن قلبه بالإيمان ، والمنشرح صدره بنور المعرفة واليقين منه شيء ، وحك في صدره بشبهة موجودة ، ولم يجد من يفتي فيه بالرخصة ، إلا من يخبر عن رأيه ، وهو ممن لا يوثق بعلمه وبدينه ، بل هو معروف باتباع الهوى ، فهنا يرجع المؤمن إلى ما حاك في صدره وإن أفتاه هؤلاء المفتون ، وقد نص الإمام أحمد على مثل هذا

أيضا[1] . أ هـ .

والخلاصة إن استفتاء القلب إنما يطلب حيث لا يوجد مفت ثقة يستند إلى دليل شرعي معتبر ، يثق المسلم بعلمه ودينه معا .

وأضاف العلامة الشوكاني معنى آخر في حديث « استفت قلبك » وهو : ان ذلك في الواقعة التي تتعارض فيها الأدلة[2] .

ومعنى هذا أن الأدلة حين تتعارض ولا يوجد مرجح واضح يرجح أحدها على الآخر ، يكون قلب المؤمن وما يفتي به مرجحا من المرجحات .

أقول : ومثله تعارض أجوبة أهل الفتوى بالنسبة للعامي المقلد ، ولم يكن لديه مرجح لأحدهم على الآخر أو الآخرين ، فلا بأس أن يرجع إلى من يطمئن إليه قلبه .

ولكن متى يؤخذ فتوى القلب ؟ في الاباحة أم التحريم أو فيهما معا ؟ هنا يقول الإمام الغزالي : واستفتاء القلب إنما هو حيث أباح المفتي ، أما حيث حرم فيجب الامتناع .

ولكن أي قلب يعتمد عليه في الفتوى ؟

هنا يذكر الغزالي أنه لا يعول على كل قلب . فرب قلب موسوس ينفي كل شيء ، ورب متساهل يطير إلى كل شيء ، فلا اعتبار بهذين القلبين . وإنما الاعتبار بقلب العالم الموفق لدقائق الأحوال ، فهو المحك الذي يمتحن به حقائق الأمور ، وما أعز هذا القلب[3] .

حديث « لقد كان فيمن قبلكم محدثون » :

٥ ـ وأما حديث « لقد كان فيمن قبلكم محدثون ، فإن يكن في أمتي منهم أحد فعمر بن الخطاب ، فهو حديث صحيح متفق عليه[4] ، ولكن لا دليل فيه على الدعوى .

ولابد من وقفة عند نص الحديث ، فقد قال شيخ الإسلام ابن تيمية : جزم بأنهم كائنون

---

(١) جامع العلوم والحكم ص ٢٢٢ ، ٢٢٣

(٢) ارشاد الفحول ص ٢٤٩

(٣) المصدر السابق .

(٤) رواه البخاري من حديث أبي هريرة ، ومسلم من حديث عائشة .

في الأمم قبلنا ، وعلق وجودهم في هذه الأمة بـ (ان) الشرطية مع أنها أفضل الأمم ، لاحتياج الأمم قبلنا إليهم ، واستغناء هذه الأمة عنهم بكمال نبيها ورسالته ، فلم يحوج الله الأمة بعده إلى محدث ولا ملهم ، ولا صاحب كشف ولا منام . فهذا التعليق لكمال الأمة ، واستغنائها لا لنقصها »[1] .

والحديث ليس فيه أي دليل على أن المحدث أو الملهم يعمل بحديث قلبه في مواجهة شرع ربه ، ولو فعل لكان محدثا من الشيطان لا من الرحمن .

قال الإمام ابن تيمية فيما نقله عنه تلميذه ابن القيم ؛ وأما ما يقوله كثير من أصحاب الخيالات والجهالات « حدثني قلبي عن ربي » فصحيح أن قلبه حدثه ولكن عمن ؟ عن شيطانه ؟ أوعن ربه ؟ ! فإذا قال : « حدثني قلبي عن ربي » كان مسندا الحديث إلى من لم يعلم أنه حدثه به ، وذلك كذب .

قال : « ومحدث الأمة ـ يعني عمر بن الخطاب ـ لم يكن يقول ذلك ، ولا تفوه به يوما من الدهر ، وقد أعاذه الله من أن يقول ذلك ، بل كتب كاتبه يوما : « هذا ما أرى الله أمير المؤمنين عمر بن الخطاب » فقال : لا ، محه واكتب : « هذا ما رأى عمر بن الخطاب ، فإن كان صوابا فمن الله ، وإن كان خطئا فمن عمر ، والله ورسوله منه بريء » .

وقال في الكلالة ـ ميراث من مات ولا والد له ولا ولد ـ « أقول فيها برأيي ، فإن يكن صوابا فمن الله ، وإن يكن خطأ فمني ومن الشيطان » .

فهذا قول المحدث بشهادة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأنت ترى الاتحادي والحلولي والاباحي ، والشطاح والسماعي ، يجاهر بالقحة والفرية فيقول : حدثنى قلبي عن ربي » !!

فانظر إلى ما بين القائلين والمرتبين ، والقولين والحالين ، وأعط كل ذي حق حقه ، ولا تجعل الزغل والخالص شيئا واحدا »[2] .

وأما ادعاء بعض المحدثين أو الملهمين بأنه جاءه التحديث أو الالهام أو الكشف مقرونا

---

(١) انظر : مدارج السالكين حـ ١ ص ٣٩ .

(٢) مدارج السالكين لابن القيم حـ ١ ص ٤٠ .

بسماع ، قطع بموجبه ، وانه من الله تعالى إليه ، بعلم ضروري يجده في نفسه ، فقد حقق هذا المقام الامام ابن القيم تحقيقا يجب أن ننقله عنه ، حتى لا تزل الأقدام ، وتضل الافهام . قال في (المدارج) شارحا لكلام الشيخ الهروي :

« قلت : أما حصوله بواسطة سمع : فليس ذلك الهاما ، بل هو من قبيل الخطاب ، وهذا يستحيل حصوله لغير الانبياء ، وهو الذي خص به موسى ، اذ كان المخاطيب هو الحق عز وجل .

وأما ما يقع لكثير من أرباب الرياضات من سماع : فهو من أحد وجوه ثلاثة ، لا رابع لها .

أعلاها : أن يخاطبه الملك خطابا جزئيا . فان هذا يقع لغير الانبياء . فقد كانت الملائكة تخاطب عمران بن حصين بالسلام . فلما اكتوى تركت خطابه . فلما ترك الكي عاد إليه خطاب . وهو نوعان :

أحدهما : خطاب يسمعه بأذنه ، وهو نادر بالنسبة إلى عموم المؤمنين .

والثاني : خطاب يلقى في قلبه يخاطب به الملك روحه ، كما في الحديث المشهور « ان للملك لمة بقلب ابن آدم ، وللشيطان لمة . فلمة الملك : ايعاد بالخير ، وتصديق بالوعد ، ولمة الشيطان : ايعاد بالشر وتكذيب بالوعد » ثم قرأ : « الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء ، والله يعدكم مغفرة من وفضلا » (البقرة : ٢٦٨) . وقال تعالى : « اذ يوحى ربك إلى الملائكة : أني معكم . فثبتوا الذين آمنوا » (الانفال : ٨) قيل في تفسيرها : قووا قلوبهم ، وبشروهم بالنصر . وقيل : احضروا معهم القتال .

والقولان حق . فانهم حضروا معهم القتال ، وثبتوا قلوبهم .

ومن هذا الخطاب : واعظ الله عز وجل في قلوب عباده المؤمنين كما في جامع الترمذي ومسند أحمد من حدث النواس بن سمعان عن النبي صلى الله عليه وسلم ، قال : « ان الله تعالى ضرب مثلا : صراطا مستقيما . وعلى كنفتي الصراط سوران ، لهما أبواب مفتحة ، وعلى الأبواب ستور مرخاة ، وداع يدعو على رأس الصراط ، وداع يدعو فوق الصراط ، فالصراط المستقيم : الاسلام . والسوران : حدود الله . والأبواب المفتحة : محارم الله .

فلا يقع أحد في حد من حدود الله حتى يكشف الستر . والداعي على رأس الصراط : كتاب الله . والداعي فوق الصراط : واعظ الله في قلب كل مؤمن » فهذا الواعظ في قلوب المؤمنين هو الالهام الالهي بواسطة الملائكة .

وأما وقوعه بغير واسطة : فمما لم يتبين بعد . والجزم فيه بنفي أو اثبات موقوف على الدليل . والله أعلم .

« النوع الثاني من الخطاب المسموع : خطاب الهواتف من الجان . وقد يكون المخاطيب جنيا مؤمنا صالحا . وقد يكون شيطانا . وهذا أيضا نوعان :

أحدهما : أن يخاطبه خطابا يسمعه بأذنه .

والثاني : أن يلقي في قلبه عندما يلم به . ومنه وعده وتمنيته حين يعد الانسى ويمنيه ، ويأمره وينهاه . كما قال تعالى : « يعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان الا غرورا » (النساء : ١٢٠) ، وقال : « الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء » . وللقلب من هذا الخطاب نصيب . وللأذن أيضا منه نصيب . والعصمة منتفية الا عن الرسل ، ومجموع الأمة .

فمن أين للمخاطب أن هذا الخطاب رحماني ، أو ملكي ؟ بأي برهان ؟ أو بأي دليل ؟ والشيطان يقذف في النفس وحيه ، ويلقي في السمع خطابه ، فيقول المغرور المخدوع : « قيل لي ، وخوطبت » صدقت ، لكن الشأن في القائل لك والمخاطب ، وقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لغيلان بن سلمة ـ وهو من الصحابة لما طلق نساءه ، وقسم ماله بين بنيه ـ « اني لأظن الشيطان ـ فيما يسترق من السمع ـ سمع بموتك ، فقذفه في نفسك » فمن يأمن القراء بعدك يا شهر ؟

« النوع الثالث : خطاب حالي ، تكون بدايته من النفس ، وعوده إليها . فيتوهمه من خارج . وانما هو من نفسه ، منها بدا وإليها يعود .

وهذا كثير ما يعرض للسالك ، فيغلط فيه . ويعتقد أنه خطاب من الله . كلمه به منه إليه . وسبب غلطه : أن اللطيفة المدركة من الانسان اذا صفت بالرياضة ، وانقطعت علقها عن الشواغل الكثيفة : صار الحكم لهم بحكم استيلاء الروح والقلب على البدن ، ومصير الحكم لها . فتنصرف لهما ، فتنصرف عناية النفس والقلب إلى تجريد المعاني التي هي متصلة

بها . وتشتد عناية الروح بها . وتصير في محل تلك العلائق والشواغل فتملأ القلب . فتصرف تلك المعاني إلى المنطق ، والخطاب القلبي الروحي بحكم العادة . ويتفق تجرد الروح . فتتشكل تلك المعاني للقوة السامعة بشكل الأصوات المسموعة ، وللقوة الباصرة بشكل الأشخاص المرئية . فيرى صورها ، ويسمع الخطاب ، وكله في نفسه ليس في الخارج منه شيء . ويحلف انه رأى وسمع . وصدق لكن رأى وسمع في الخارج ، أو في نفسه ؟ ويتفق ضعف التمييز . وقلة العلم ، واستيلاء تلك المعاني على الروح . وتجردها عن الشواغل .

فهذه الوجوه الثلاثة هي وجوه الخطاب . ومن سمَّع نفسه غيرها فانما هو غرور ، وخدع وتلبيس . وهذا الموضع مقطع القول ، وهو من أجل المواضع لمن حققه وفهمه . والله الموفق للصواب »[1] .

قيـاس الالهـام على الرؤيـا الصـادقـة :

أما قياس الالهام والكشف على الرؤيا الصادقة ، وخصوصا رؤيا النبي صلى الله عليه وسلم ، الذي لا يتمثل الشيطان به . . فهو قياس لم يستوف شرائطه ، لأن المقيس عليه نفسه غير مسلم عند الخصم .

وقد علم أن الرؤى الصادقة مجرد مبشرات ومنبهات ، كما صح في الحديث ، وليس أدلة تؤخذ منها الأحكام .

حتى رؤيا النبي صلى الله عليه وسلم نفسه ، لا يجوز أن تكون مصدرا لحكم شرعي ، لم يثبت بالقرآن والسنة ، بعد أن أكمل الله لنا الدين ، وأتم به علينا النعمة ، وهو ما قرره المحققون من علماء الأمة ، وردوا على من اتخذ من حديث « ان الشيطان لا يتمثل بي » - وهو صحيح متفق عليه - دليلا على أنها تكون حجة يلزم العمل بها .

قالوا : لا تكون الرؤيا حجة ، ولا يثبت بها حكم شرعي ، وان كانت رؤيا النبي صلى الله عليه وسلم رؤيا حق ، والشيطان لا يتمثل به ، لكون النائم ليس من أهل التحمل

---

(١) مدارج السالكين حـ١/ ٤٥ - ٤٨

للرواية لعدم ضبطه وحفظه[1].

ونضيف هنا أمرا آخر ، وهو : ان الرائي لا يمكنه ان يجزم ويوقن بأن الذي رآه هو النبي صلى الله عليه وسلم ، الا اذا كان يعرف صورته في اليقظة معرفة تامة ، وذلك لا يتحقق الا للصحابة رضي الله عنهم . وربما لمن عرف أوصافه عليه الصلاة والسلام معرفة كاملة . وسنحقق ذلك بتفصيل في موضع آخر .

وذكر الشوكاني قولا آخر : انه يعمل بالرؤيا ما لم تخالف شرعا ثابتا .

قال الشوكاني :

« ولا يخفاك أن الشرع الذي شرعه الله لنا على لسان نبينا صلى الله عليه وسلم قد كمله الله عز وجل ، وقال : « اليوم أكملت لكم دينكم » (المائدة : ٣) ولم يأتنا دليل يدل على أن رؤيته في النوم بعد موته صلى الله عليه وآله وسلم اذا قال فيها بقول ، أو فعل فيها فعلا ، يكون دليلا وحجة . بل قبضه الله اليه بعد أن كمل لهذه الأمة ما شرعه لها على لسانه ، ولم يبق بعد ذلك حاجة للأمة في أمر دينها ، وقد انقطعت البعثة لتبليغ الشرائع وتبيينها بالموت ، وان كان رسولا حيا وميتا . وبهذا نعلم أن لو قدرنا ضبط النائم لم يكن ما رآه من قوله صلى الله عليه وآله وسلم أو فعله حجة عليه ولا على غيره من الأمة[2] أ هـ .

قصة الخضر مع موسى :

وأما الاستدلال بقصة الخضر مع موسى ، أو موسى مع الخضر عليهما السلام ، فلا يملك المسلم فيها أو فيما شابهها الا أن يقف موقف موسى أولا ، بأن ينكر كل ما خالف ظاهر الشرع ، الا أن يكون معه امر من الله باتباع ذلك الآخر المخالف ، ولا أمر بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد اكتمل الدين وانقطع الوحى فموسى ينفذ أمر الله باتباع الخضر ، والخضر ينفذ أمر الله كذلك في مواقفه الثلاثة ، كما سجل القرآن ذلك على لسانه اذ يقول في نهاية القصة لموسى : « وما فعلته عن أمري ، ذلك تأويل ما لم تستطع عليه صبرا» (الكهف : ٨٢)

---

(١) ارشاد الفحول للشوكاني ص ٢٤٩ .

(٢) المصدر السابق .

وللامام أبي اسحاق الشاطبي ، كلمة نيرة يرد بها على من تعلق بقصة الخضر عليه السلام في جواز مخالفة الشريعة باسم الكشف أو غيره ، ذكرها في كتابه القيم (الموافقات) قال :

« وأما قصة الخضر ـ عليه السلام ـ وقوله : « وما فعلته عن أمري » فيظهر به أنه نبي وذهب إليه جماعة من العلماء استدلالا بهذا القول . ويجوز للنبي أن يحكم بمقتضى الوحي من غير اشكال . وان سلم فهي قضية عين ، ولأمر ما ، وليست جارية على شرعنا .

والدليل على ذلك أنه لا يجوز في هذه الملة لولي ، ولا لغيره ممن ليس بنبي أن يقتل صبيا لم يبلغ الحلم ، وان علم أنه طبع كافرا ، وأنه لا يؤمن أبدا ، وأنه ان عاش أرهق أبويه طغيانا وكفرا ، وان أذن له من عالم الغيب في ذلك ، لأن الشريعة قد قررت الأمر والنهي ، وانما الظاهر في تلك القصة أنها وقعت على مقتضى شريعة أخرى ، وعلى مقتضى عتاب موسى ـ عليه السلام ـ واعلامه أن ثم علما آخر ، وقضايا أخر لا يعلمها هو .

فليس كل ما أطلع عليه الولي من الغيوب يسوغ له شرعا أن يعمل عليه ، بل هو على ضربين :

أحدهما : ما خالف العمل به ظواهر الشريعة من غير أن يصح رده إليها ، فهذا لا يصح العمل عليه ألبتة .

والثاني : ما لم يخالف العمل به شيئا من الظواهر ، أو ان ظهر منه خلاف فيرجع بالنظر الصحيح إليها ، فهذا يسوغ العمل عليه . وقد تقدم بيانه .

فاذا تقرر هذا الطريق فهو الصواب ، وعليه يربي المربي ، وبه يعلق همم السالكين ، تأسيا بسيد المتبوعين رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو أقرب إلى الخروج عن مقتضى الحظوظ ، وأولى برسوخ القدم ، وأحرى بأن يتابع عليه صاحبه ، ويقتدي به فيه ، والله أعلم[1] ».

وقبل الشاطبي بين شيخ الاسلام ابن تيمية بالأدلة الناصعة من الكتاب والسنة الغلط الذي وقع لأولئك القوم في الاحتجاج بقصة موسى والخضر على مخالفة الشريعة ، ومما ذكره : أن موسى عليه السلام لم يكن مبعوثا إلى الخضر ولا أوجب الله على الخضر متابعته وطاعته ،

---

(١) الموافقات حـ ٢ ص ٢٩٦ ، ٢٩٧ .

بل قد ثبت في الصحيحين : « أن الخضر قال له : يا موسى ، اني على علم من علم الله علمنيه الله لا تعلمه ، وأنت على علم من علم الله علمكه الله لا أعلمه » وذلك أن دعوة موسى كانت خاصة .

وقد ثبت في الصحاح من غير وجه عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال فيما فضله الله به على الانبياء ، قال :

« كان النبي يبعث إلى قومه خاصة ، وبعثت إلى الناس عامة » .

فدعوة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ شاملة لجميع العباد ، ليس لأحد الخروج عن متابعته وطاعته ، والاستغناء عن رسالته ، كما ساغ للخضر الخروج عن متابعته موسى وطاعته ، مستغنيا عنه بما علمه الله .

وليس لأحد ممن أدركه الاسلام أن يقول لمحمد : اني على علم من علم الله علمنيه الله لا تعلمه .

ومن سوغ هذا ، أو اعتقد أن أحدا من الخلق ـ الزهاد والعباد أو غيرهم ـ له الخروج عن دعوة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومتابعته ، فهو كافر باتفاق المسلمين ، ودلائل هذا من الكتاب والسنة أكثر من أن تذكر هنا .

وقصة الخضر ليس فيها خروج عن الشريعة ، ولهذا لما بين الخضر لموسى الأسباب التي فعل لأجلها ما فعل ، وافقه موسى ، ولم يختلفا حيئنذ . ولو كان ما فعله الخضر مخالفا لشريعة موسى لما وافقه .

ومثل هذا وأمثاله يقع للمؤمنين بأن يختص أحد الشخصين بالعلم بسبب يبيح له الفعل في الشريعة ، والآخر لا يعلم ذلك السبب ، وان كان قد يكون أفضل من الأول ، مثل شخصين دخلا إلى بيت شخص ، وكان أحدهما يعلم طيب نفسه بالتصرف في منزله ، اما باذن لفظي أو غيره ، فيتصرف ، وذلك مباح في الشريعة ، والآخر الذي لم يعلم هذا السبب لا يتصرف .

وخرق السفينة كان من هذا الباب ، فان الخضر كان يعلم أن امامهم ملكا يأخذ كل سفينة غصبا ، وكان من المصلحة التي يختارها أصحاب السفينة اذا علموا ذلك ، لئلا يأخذها . . خير من انتزاعها منهم .

ونظير هذا حديث الشاة التى أصابها الموت فذبحتها امرأة بدون اذن أهلها ، فسألوا النبي صلى الله عليه وسلم ، عنها فأذن لهم في أكلها ، ولم يلزم التي ذبحت بضمان ما نقصت بالذبح ، لأنه كان مأذونا فيه عرفا ، والأذن العرفي ، كالأذن اللفظي .

ولهذا بايع النبي صلى الله عليه وسلم ، عن عثمان في غيبته بدون استئذانه لفظا .

ولهذا لما دعاه أبو طلحة ونفرا قليلا إلى بيته ، قام بجميع أهل المسجد لما علم من طيب نفس أبي طلحة ، وذلك لما يجعله الله من البركة ، وكذلك حديث جابر .

وقد ثبت أن لحاما ، دعاه فاستأذنه في شخص يستتبعه لأنه لم يكن يعلم من طيب نفس اللحام ما علمه من طيب نفس أبي طلحة وجابر وغيرهما .

وكذلك قتل العلام ، كان من باب دفع الصائل على أبويه ، لعلمه بأنه كان يفتنهما عن دينهما ، وقتل الصبيان يجوز اذا قاتلوا المسلمين ، بل يجوز قتلهم لدفع الصول على الأموال .

فلهذا ثبت في صحيح البخاري أن نجده الحروري (من رؤوس الخوارج) لما سأل ابن عباس عن قتل الغلمان قال :

« ان كنت تعلم منهم ما علمه الخضر من الغلام فاقتلهم والا فلا تقتلهم »[1].

شـــهادة القلـــب في التحـــري :

زاد بعضهم دليلا آخر ، لمشروعية الاحتجاج بالالهام على الأحكام فاستدل بما قرره الفقهاء من الترجيح بين القياسين المتعارضين بشهادة القلب ، وكذلك أنواع التحري في القبلة ، واختلاط الحرام بالحلال ، والنجس بالطاهر .

ذكر ذلك العلامة الفناري الحنفي ، ورد عليه قائلا : التحري ليس من الالهام المخصوص بالعدل التقي ، بل هو دليل ضروري لا يعمل به الا عند العجز عن أسباب العلم ، مشروع في حق الصالح والطالح[2]. أ هـ .

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الاسلام أحمد بن تيمية « المجلد الحادي عشر » ص ٤٢٥ ـ وما ذكره عن ابن عباس هنا ، فإنما قصد به ـ كما قال السبكي المحاجة والاحالة على ما لا يمكن ، قطعا لطمعه في الاحتجاج بقصة الخضر ، وليس مقصوده رضى عنه انه ان حصل له ذلك يجور القتل انظر : روح المعاني للالوسى جـ ١٦ ـ جـ ١٧ .

(٢) فصول البدائع حـ ٢ ص ٣٩٢ .

موقـــف الربانـــيين المعتـدلـــين من علمـــاء الســـنة :

بعد أن بينا موقف النفاة المنكرين للالهام ، من علماء الأصولين : أصول الدين وأصول الفقه ، وبينا في مقابلتهم موقف المغالين في اثبات الالهام والمعظمين له ، وما أضفوا عليه من حجية وقدسية ، ترتب عليها ما ذكرناه من نتائج وآثار في مجالات العقيدة والفكر والعبادة والسلوك .

ينبغي علينا هنا أن نبين موقف المتوسطين المعتدلين من ربانيي هذه الأمة الذين أشار إليهم القرآن بقوله تعالى : « ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون » (آل عمران : ٧٩)

وقد تبين موقف هؤلاء من خلال ردهم على الغلاة والمنحرفين من المتصوفة ، فيما ذكرناه في المباحث السابقة .

ولكن لا بأس من بيان موقفهم استقلالا ، ليزداد تأصلا واتضاحا .

ان هؤلاء الربانيين من دعاة (الوسطية الاسلامية) هم الذين جمعوا بين النورين : نور العقل ونور القلب ، نور العلم ونور الايمان ، نور الفطرة ونور النبوة ، واهتدوا بصحيح المنقول وصريح المعقول ، ووفقوا بين النصوص الجزئية والمقاصد الكلية ، وردوا الفروع إلى الأصول ، والمتشابهات إلى المحكمات ، والظنيات إلى القطعيات ، فأثبتوا الالهام والكشف والتحديث والفراسة والرؤى الصادقة بشروطها وفي حدودها ، وأقاموا الوزن بالقسط ولم يخسروا الميزان ، ولم يطغوا فيه ، وبهذا أووا من العلم إلى ركن شديد ، واعتصموا من الدين بحبل متين . « ومن يعتصم بالله فقد هدي إلى صراط مستقيم » (آل عمران : ١٠١) .

ان موقف أهل التوسط والاعتدال من محققي علماء السنة ، هو الذي يعبر بحق عن وسطية المنهج الاسلامي ، ووسطية الأمة الاسلامية .

فهم لا يغلقون بابا من أبواب المعرفة والوعي ، فتحه الله لبعض الناس ، في بعض الأوقات ، بجوار البابين الآخرين ، من أبواب المعرفة ، وهما اللذان لهما صفة العموم والدوام .

أعني : باب الحواس ، وخصوصا السمع والبصر ، وباب العقل ، وقد يعبر عنه في القرآن لاكريم بالفؤاد أو القلب ، يقول تعالى : « ولا تقف ما ليس لك به علم ، ان

السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا » (الاسراء : ٣٦). ويقول سبحانه وتعالى : « والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا ، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون » (النحل : ٧٨) فجعل هذه الثلاثة منافذ المعرفة للانسان . السمع والأبصار للمعرفة الحسية ، والأفئدة للمعرفة العقلية .

والمعرفة (السمعية) تدخل فيها العلوم النقلية ، ومنها : علوم الدين ، فهي علوم سمعية ، وان نقلت عن طريق القلم والكتاب .

والمعرفة (البصرية) تدخل فيها العلوم التجريبية ، لأنها تقوم على الملاحظة والتجربة والقياس ، وأساسها البصر والمشاهدة .

والمعرفة (الفؤادية) أو (القلبية) يدخل فيها المعرفة العقلية الخالصة ، عن طريق النظر والتفكير والاعتبار والاستدلال . كما يمكن أن يدخل فيها المعرفة المباشرة عن طريق البصيرة والحدس والالهام ، وهو ما يسمونه (المعرفة الروحية) .

ذلك أن كلمة (الفؤاد) أو (القلب) ليست مرادفة لكلمة (العقل) بل هي أعم وأشمل ، فقد يراد منها تلك اللطيفة المدركة العاقلة المفكرة ، ولذا توصف أحيانا بالعقل أو الفقه ، كما في قوله تعالى : « أفلم يسيروا في الأرض فتكون لها قلوب يعقلون بها » (الحج : ٤٦) .

وقوله في أهل النار « لهم قلوب لا يفقهون بها » (الاعراف : ١٧٩) .

وقد يراد من كلمة الفؤاد أو القلب ما يطلق عليه الآن اسم (الروح) أو (الضمير) أو (البصيرة) أو نحو ذلك من الكلمات التي تعبر عن نوع من الوعي المباشر دون الادوات التي يستخدمها العقل المنطقي في تحصيل معرفته .

ومهما يكن من تفسيرنا لكلمة (الافئدة) أو (القلوب) فان مما لا ريب فيه ان فيها نورا فطريا أودعه الله فيها ، يزداد بالايمان والمجاهدة والتقوى ، فيكون كما قال الله تعالى : « نور على نور » (النور : ٣٥) .

كما أن الكفر والجحود والغفلة واتباع الهوى ، يعطل هذه الاجهزة المعرفية لدى الانسان ، ويخرب صلاحيتها ، كما قال تعالى : « ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والانس ، لهم قلوب لا يفقهون بها ، ولهم أعين لا يبصرون بها ، ولهم آذان لا يسمعون بها ، أولئك كالانعام ،

بل هم أضل ، أولئك هم الغافلون » (الاعراف : ١٧٩) .

وقال عن بعض الكفار الذين نزل بهم عقاب الله : « وجعلنا لهم سمعا وأبصارا وأفئدة ، فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء ، اذ كانوا يجحدون بآيات الله وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون » (الاحقاف : ٢٦) .

وقال تعالى : « أفرأيت من اتخذ الهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه ، وجعل على بصره غشاوة ، فمن يهديه من بعد الله ؟ أفلا تذكرون ؟» (الحاثية ٢٣) .

لم يقل العلماء المعتدلون الذين اهتدوا بالكتاب والسنة بسد باب الالهام والكشف ونور البصيرة، وانما أرادوا أن يقيدوه بالأصول والضوابط التي تمنع دخول الوهم والكذب والغلو فيه .

واذا كان العقليون من قديم حاولوا أن يضبطوا انتاج العقل بقواعد (المنطق) الذي عرفوه بأنه (آلة قانونية تعصم مراعاتها الذهن عن الخطأ في الفكر) وبهذا يمكن الرجوع إلى هذه القواعد عند الخلاف .

واذا كان الشرعيون قد وفقهم الله لوضع علم (أصول الفقه) لضبط الاستدلال فيما فيه نص ، وفيما لا نص فيه ، واسسوا بذلك علما عظيما لم يعرف مثله في حضارة من الحضارات ، وغدا مفخرة من مفاخر التراث الفكري الاسلامي .

اذا كان الأمر كذلك ، فكيف يترك الأمر فوضى في موضوع الكشف والالهام وندع الباب مفتوحا على مصراعيه ، لكل من هب ودب ، ممن تخيل فخال ، أو من لا يميز بين الهام الملك ونفث الشيطان ، أو من أدعى الوصول ولم يرع الأصول ، من كل دجال يشتري الدنيا بالدين ، ويتبع غير سبيل المؤمنين ؟!

هذا ما يراه الربانيون من علماء السنة ، فهم لا ينكرون أن يقذف الله في قلب عبد من عباده نورا يكشف له بعض المستورات والحقائق ، ويهديه إلى الصواب ، في بعض المواقف والمضايق ، بدون اكتساب ولا استدلال ، بل هبة من الله تعالى ، والهاما منه .

ومن آمن بقدرة الله تعالى على كل شيء ، وآمن بالطاقة الروحية الهائلة في الانسان ، وآمن بأثر الايمان والعبادة والمجاهدة في تفجير هذه الطاقة الكامنة ، لم يستبعد أن يقع الكشف والالهام من الله لبعض عباده المؤمنين الصادقين ، في بعض الأحوال والأوقات ، تفضلا منه

وكرما ، « قل : ان الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء ، والله واسع عليم . يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم » (آل عمران : ٧٣، ٧٤) .

تحــريــر مــوضــع النــزاع :

فما هو اذن موضع الخلاف بينهم وبين من ذكرنا من المتصوفة أصحاب الكشف والالهام ؟

هنا يلزمنا تحرير موضع النزاع بين الفريقين لنستبين ، ما هو متفق عليه ، وما هو مختلف فيه .

الهــام الانبيــاء وحــي :

لا نزاع بين أحد من أهل الاسلام ، في أن الهام الانبياء جزء من الوحي المعصوم وفيه جاء مثل قوله صلى الله عليه وسلم : « ان روح القدس نفث في روعي : ان نفسا لن تموت حتى تستكمل أجلها ، وتستوعب رزقها . »[1]

كما لا نزاع بينهم في أن رؤيا الانبياء وحي أيضا ، وهي تدخل مع الالهام في قوله تعالى : « وما كان لبشر أن يكلمه الله الا وحيا ، أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحى باذنه ما يشاء ، انه عليّ حكيم » (الشورى : ٥١) .

فقوله : « إلا وحيا » يشمل الالهام في اليقظة ، والرؤيا في المنام .

وقد ذكر لنا القرآن رؤيا ابراهيم في شأن ذبح ابنه وكيف اعتبر ما رآه في المنام أمرا من الله تعالى ، وكذلك الابن « قال : يا بني اني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى ؟ قال : يا أبت افعل ما تؤمر ، ستجدني ان شاء الله من الصابرين » . (الصافات : ١٠٢)

أثــر التقــوى والمجاهــدة فـي الهـدايــة والالهــام :

ولا نزاع في أن الايمان والعبادة والتقوى ، ومجاهدة النفس ، لها أثرها في تنوير العقل ، وهداية القلب ، والتوفيق إلى اصابة الحق في الأقوال ، والسداد في الأعمال ، والخروج من مضايق الاشتباه إلى باحات الوضوح ، ومن اضطراب الشك إلى ثبات اليقين .

ولا نزاع كذلك في أن يكشف الله لبعض المتقين من عباده من حقائق العلم ، وانوار

---

(١) رواه أبو نعيم في الحلية عن أبي أمامة وذكره الألباني في صحيح الجامع الصغير .

المعرفة في فهم كتابه أو سنة نبيه ، بمحض الفيض الالهي والفتح الرباني ـ ما يلهث كثيرون ليحصلوا عليه بالمذاكرة والتحصيل ، فلا يظفرون بما يدانيه ، بشرط أن يحصلوا الادوات الضرورية لفهم العلم .

وهذا ما جعل كثيرا من كبار العلماء المؤلفين في التفسير والحديث والفقه وغيرها ، يجعلون في عناوين كتبهم كلمات مثل : الفتح والفيض ونحوهما[1].

ولا نزاع كذلك في أن يوهب بعض الناس من صدق الفراسة وقوتها ما يستطيع به أن يكتشف شخصية المرء يلقاه بنظرة إليه ، أو كلمة يسمعها منه ، أو يقرأ أفكاره ، أو يعرف بعض ما يجول بنفسه .

وهي موهبة فطرية لدى بعض الناس تقويها الرياضة والمجاهدة ، وتنميها تقوى الله تعالى ، ويصقلها الايمان واليقين بالله تعالى والدار الآخرة ، حتى ان المؤمن لتصدق فراسته ، كأنما ينظر بنور الله ، وينطق بلسان القدر ، ويبصر الغيب من وراء ستر رقيق .

ولابن القيم هنا كلام جيد في (مدارج السالكين) يجب أن يقرأ ويراجع [2].

ابن تيمية لا ينكر الالهام الناشىء عن الايمان والتقوى :

ومن الناس من يظن أن شيخ الاسلام ابن تيمية يجحد كل أثر للايمان والتقوى والمجاهدة الروحية في نفس الانسان المسلم ، فلا تفيده نورا يبصر به في الظلمات ، ولا فرقانا يميز به بين المتشابهات ، ولا هداية تنحل بها العقد والمشكلات ، وان شأن المؤمن العابد التقي المحاسب لنفسه ، المراقب لربه ، المخلص في عمله ونيته ، كشأن العاصي المسرف على نفسه ، أو الغافل عن ذكر ربه ، الناسي لأمر آخرته ، اذا استويا في الذكاء والتحصيل !

وربما يؤيد هذا الظن ما قد يلحظه بعضهم من جمود وتزمت في فريق من الحرفيين الذين ينسبون أنفسهم أو ينسبهم الناس إلى مدرسة ابن تيمية السلفية .

وكيف يتصور من هذا الامام الذي قضى عمره كله في رحاب كتاب الله تعالى ، وفي ظلال

---

(١) مثل (فتح الباري) لابن حجر ، و (فتح الملهم) لابن الهمام ، و (فتح القدير) للشوكاني ، وفتح العزيز للرافعي ، و (فتح الملك العلام) لصديق حسن خان ، وفيض القدير للمناوي ، وفيض الباري للكشميري وغيرها .

(٢) مدارج السالكين حـ ١ ص ١٢٩ ـ ١٣١ .

سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومع هدي خير قرون هذه الأمة ، وأفضل أجيالها علما وعملا وايمانا وتقوى ، واخلاصا وجهادا في الله ، ان يجحد أثر الايمان والعبادة والمجاهدة في هداية الانسان المؤمن التقي إلى الحق والسداد ، وهو يجد بين يديه الآيات والأحاديث والآثار تنطق بهذا المعنى بكل بيان وجلاء ؟!

وكيف يجحد ذلك أو يجهله وهو في حياته وسلوكه يجسد صورة مشرقة للعالم الرباني الذي جعل علمه وعمله ، وصلاته ، ونسكه ومحياه ومماته لله رب العالمين ، ففاضت الحكمة من قلبه على لسانه وقلمه ، ومنحه الله من النور والفرقان ما لم يمنح الا للصفوة من أولياء الله تعالى ؟

وكثيرا ما ظلم شيخ الاسلام وأصحابه ، ونسب اليهم من الأفكار والمفاهيم والاتجاهات ما لم يقولوا به ، وما يكذبه تراثهم وسيرتهم العلمية والعملية . وما ظلموا الا بسبب هؤلاء المحجوبين المطموسين اليابسين ، من زوامل النقل وأسارى الرسم والشكل ، الذين شغلوا بالظاهر عن الباطن وبالصور عن الحقائق . الذين حرموا عمق الحاسة الروحية ، ولم يوجهوا عنايتهم لأعمال القلوب ومقامات الايمان والاحسان ، وتزكية الانفس ومجاهدتها في الله ، حتى يهديها سبله ، ويذيقها حلاوة الايمان .

وليس أدل على منهج ابن تيمية وموقفه في هذه القضية من نقل كلامه نفسه رضى الله عنه .

يقول فيما نقل في مجموع فتاواه ورسائله :

(القلب المعمور بالتقوى إذا رجح بمجرد رأيه فهو ترجيح شرعي . قال : فمتى ما وقع عنده وحصل في قلبه ما يظن معه أن هذا الأمر أو هذا الكلام أرضى لله ورسوله ، كان هذا ترجيحاً بدليل شرعي ، والذين أنكروا كون الالهام ليس طريقاً إلى الحقائق مطلقاً أخطأوا ، فاذا اجتهد العبد في طاعة الله وتقواه كان ترجيحه لما رجح أقوى من كثير من الأقيسة الضعيفة والموهومة ، والظواهر والاستصحابات الكثيرة التي يحتج بها كثير من الخائضين في المذاهب والخلاف وأصول الفقه .

وقد قال عمر بن الخطاب : اقربوا من أفواه المطيعين ، واسمعوا منهم ما يقولون ؛ فانهم تتجلى لهم أمور صادقة . وحديث مكحول المرفوع : « ما أخلص عبد العبادة لله تعالى أربعين يوماً إلا أجرى الله الحكمة على قلبه ؛ وأنطق بها لسانه » وفي رواية « إلا ظهرت ينابيع

الحكمة من قلبه على لسانه »[1]. وقال أبو سليمان الداراني : إن القلوب إذا اجتمعت على التقوى جالت في الملكوت ؛ ورجعت إلى أصحابها بطرف الفوائد ؛ من غير أن يؤدي إليها عالم علماً .

وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم : « الصلاة نور ؛ والصدقة برهان ؛ والصبر ضياء »[2]، ومن معه نور وبرهان وضياء كيف لا يعرف حقائق الأشياء من فحوى كلام أصحابها ؟ ولا سيما الأحاديث النبوية ؛ فانه يعرف ذلك معرفة تامة ؛ لأنه قاصد العمل بها ؛ فتتساعد في حقه هذه الأشياء مع الامتثال ومحبة الله ورسوله ، حتى إن المحب يعرف من فحوى كلام محبوبه مراده منه تلويحا لا تصريحاً .

والعين تعرف من عيني محدثها
إن كان من حزبها أو من أعاديها
انارة العقل مكسوف بطوع هوى
وعقل عاصي الهوى يزداد تنويرا

وفي الحديث الصحيح : « لا يزال عبدي يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه ، فاذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها »[3].

ومن كان توفيق الله له كذلك فكيف لا يكون ذا بصيرة نافذة ونفس فعالة ؟ وإذا كان الاثم والبر في صدور الخلق له تردد وجولان ؛ فكيف حال مَن الله سمعه وبصره وهو في قلبه ؟ وقد قال ابن مسعود : الاثم حواز القلوب ، وقد قدمنا أن الكذب ريبة والصدق طمأنينة ، فالحديث الصدق تطمئن إليه النفس ، ويطمئن إليه القلب .

وأيضاً فان الله فطر عباده على الحق ؛ فاذا لم تستَحِل الفطرة ؛ شاهدت الأشياء على

---

(١) ذكره في الجامع الصغير بلفظ « من اخلص لله اربعين يوما ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه » ونسبه إلى أبى نعيم في الحلية من حديث ابى ايوب . قال في (فيض القدير) : اورده ابن الجوزي في الموضوعات . وتعقبه السيوطي بان الحافظ العراقى في تخريج (الاحياء) اقتصر على تضعيفه !

(٢) الحديث في صحيح مسلم عن ابى مالك الاشعرى ، وهو من احاديث الاربعين النووية .

(٣) هو في صحيح البخاري من حديث ابى هريرة .

ما هي عليه ؛ فأنكرت منكرها ، وعرفت معروفها . قال عمر : الحق أبلج لا يخفى على فطن .

فاذا كانت الفطرة مستقيمة على الحقيقة منورة بنور القرآن ؛ تجلت لها الأشياء على ما هي عليه في تلك المزايا ، وانتفت عنها ظلمات الجهالات ، فرأت الأمور عيانا مع غيبها عن غيرها .

وفي السنن والمسند وغيره عن النواس بن سمعان عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « ضرب الله مثلا صراطا مستقيما وعلى جنبتى الصراط سوران ؛ وفي السورين أبواب مفتحة ؛ وعلى الأبواب ستور مرخاة ؛ وداع يدعو على رأس الصراط ؛ وداع يدعو من فوق الصراط ؛ والصراط المستقيم هو الاسلام ؛ والستور المرخاة حدود الله ؛ والأبواب المفتحة محارم الله ، فاذا أراد العبد أن يفتح بابا من تلك الأبواب ناداه المنادي : يا عبد الله ! لا تفتحه ؛ فانك إن فتحته تلجه . والداعي على رأس الصراط كتاب الله ؛ والداعي فوق الصراط واعظ الله في قلب كل مؤمن » ، فقد بين في هذا الحديث العظيم ـ الذي من عرفه انتفع به انتفاعا بالغاً إن ساعده التوفيق ؛ واستغنى به عن علوم كثيرة ـ أن في قلب كل مؤمن واعظا ، والوعظ هو الأمر والنهي ؛ والترغيب والترهيب .

وإذا كان القلب معموراً بالتقوى انجلت له الأمور وانكشفت ؛ بخلاف القلب الخراب المظلم ، قال حذيفة بن اليمان : إن في قلب المؤمن سراجا يزهر . وفي الحديث الصحيح : « إن الدجال مكتوب بين عينيه كافر ، يقرؤه كل مؤمن قارىء وغير قارىء »[1]، فدل على أن المؤمن يتبين له ما لا يتبين لغيره ؛ ولا سيما في الفتن ، وينكشف له حال الكذاب الواضع على الله ورسوله ؛ فان الدجال اكذب خلق الله ، مع أن الله يجري على يديه أموراً هائلة ، ومخاريق مزلزلة ، حتى ان من رآه افتتن به ، فيكشفها الله للمؤمن حتى يعتقد كذبها وبطلانها .

وكلما قوي الايمان في القلب قوي انكشاف الأمور له ؛ وعرف حقائقها من بواطلها ، وكلما ضعف الايمان ضعف الكشف ، وذلك مثل السراج القوي والسراج الضعيف في البيت المظلم ؛ ولهذا قال بعض السلف في قوله : (نور على نور) قال : هو المؤمن ينطق بالحكمة المطابقة للحق وإن لم يسمع فيها بالأثر ، فاذا سمع فيها بالأثر كان نوراً على نور . فالايمان

---

(١) متفق عليه من حديث حذيفة وأبي مسعود معا .

الذي في قلب المؤمن يطابق نور القرآن ؛ فالالهام القلبي تارة يكون من جنس القول والعلم ؛ والظن أن هذا القول كذب ؛ وأن هذا العمل باطل ؛ وهذا أرجح من هذا ؛ أو هذا أصوب .

وفي الصحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « قد كان في الأمم قبلكم محدَّثون ، فان يكن في أمتى منهم أحد فعمر » ، والمحدَّث : هو الملهم المخاطب في سره . وما قال عمر لشيء : إني لأظنه كذا وكذا إلا كان كما ظن ، وكانوا يرون أن السكينة تنطق على قلبه ولسانه .

وأيضاً فاذا كانت الأمور الكونية قد تنكشف للعبد المؤمن لقوة إيمانه يقينا وظناً ؛ فالأمور الدينية كشفها له أيسر بطريق الأولى ؛ فانه إلى كشفها أحوج ، فالمؤمن تقع في قلبه أدلة على الأشياء لا يمكنه التعبير عنها في الغالب ، فان كل أحد لا يمكنه إبانة المعاني القائمة بقلبه ، فاذا تكلم الكاذب بين يدي الصادق عرف كذبه من فحوى كلامه ، فتدخل عليه نخوة الحياء الايماني فتمنعه البيان ، ولكن هو في نفسه قد أخذ حذره منه ، وربما لوح أو صرح به خوفا من الله ، وشفقة على خلق الله ، ليحذروا من روايته أو العمل به .

وكثير من أهل الايمان والكشف يلقي الله في قلبه أن هذا الطعام حرام ؛ وأن هذا الرجل كافر ؛ أو فاسق ، أو ديوث ؛ أو لوطي ، أو خمار ؛ أو مغن ؛ أو كاذب ؛ من غير دليل ظاهر ، بل بما يلقي الله في قلبه .

وكذلك بالعكس ، يلقي في قلبه محبة لشخص ، وأنه من أولياء الله ، وأن هذا الرجل صالح ؛ وهذا الطعام حلال ، وهذا القول صدق ؛ فهذا وأمثاله لا يجوز أن يستبعد في حق أولياء الله المؤمنين المتقين .

وقصة الخضر مع موسى هي من هذا الباب ، وان الخضر علم هذه الأحوال المعينة بما أطلعه الله عليه . وهذا باب واسع يطول بسطه ، قد نبهنا فيه على نكت شريفة تطلعك على ما وراءها)[1] . أ هـ

وما قاله شيخ الاسلام هنا ، أكده وأيده تلميذه المحقق الامام ابن القيم ـ رحمهما الله ـ في عدد من كتبه ، وخصوصا في كتابه الشهير « مدارج السالكين » .

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الاسلام ابن تيمية جـ ٢ ص ٤٢ ـ ٤٧ .

شـــرط الاعتبـــار بالكشـــف والالهـــام والرؤيـــا :

كما لا نزاع في الالهام والكشف في باب الكرامات والخوارق التي يكرم الله بها بعض أوليائه المتقين ، فيقرب لهم البعيد ، أو يكثر على أيديهم القليل ، أو يكشف لهم بعض المستور من غيوب المستقبل ، أو مكنونات الصدور ، أو خفايا الأمور ، أو يذلل لهم بعض الصعاب ، بغير الطريق المعتاد ، إلى غير ذلك مما كثرت فيه الحكايات ، وتناقلته الروايات ، مما لا يخلو بعضه من صحة وثبوت ، وما لا يسلم بعضه أيضا من مبالغة أو اختلاق .

ولكن المبدأ مسلم به وبنتائجه بشرطه ، وهو ألا يخرم قاعدة دينية ثابتة ، ولا حكما شرعيا متفقا عليه .

وهو ما بينه وفصله بأدلته وأمثلته الامام الشاطبي في كتاب المقاصد من (الموافقات) فليرجع إليه .

فقد بين أن ما يخرم قاعدة شرعية ، أو حكما شرعيا ليس بحق في نفسه بل هو إما خيال ، أو وهم ، واما من القاء الشيطان ، وقد يخالطه ما هو حق وقد لا يخالطه ، وجميع ذلك لا يصلح اعتباره ، من جهة معارضته لما هو ثابت مشروع . فان التشريع الذي جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، عام لا خاص ، لا ينخرم أصله ، ولا ينكسر له اطراد ، ولا يستثنى من الدخول تحت حكمه مكلف .

واذا كان كذلك فكل ما جاء من هذا القبيل الذي نحن بصدده مضادا لما تمهد في الشريعة ، فهو فاسد باطل .

قـــال الشـــاطـــبي :

« ومن أمثلة ذلك مسألة سئل عنها ابن رشد في حاكم شهد عنده عدلان مشهوران بالعدالة في أمر ، فرأي الحاكم في منامه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال له : « لا تحكم بهذه الشهادة فانها باطل » ، فمثل هذا من الرؤيا لا معتبر بها في أمر ولا نهي ، ولا بشارة ولا نذارة ، لأنها تخرم قاعدة من قواعد الشريعة ، وكذلك سائر ما يأتي من هذا النوع . وما روي « أن أبا بكر رضي الله عنه أنفذ وصية رجل بعد موته برؤيا رؤيت » فهي قضية عين لا تقدح في القواعد الكلية لاحتمالها ، فلعل الورثة رضوا بذلك ، فلا يلزم منها خرم أصل .

وعلى هذا لو حصلت له مكاشفة بان هذا الماء المعين مغصوب أو نجس أو أن هذا الشاهد كاذب ، أو أن المال لزيد وقد تحصل بالحجة لعمرو ، أو ما أشبه ذلك ، فلا يصح له العمل على وفق ذلك ما لم يتعين سبب ظاهر ، فلا يجوز له الانتقال إلى التيمم ، ولا ترك قبول الشاهد ، ولا الشهادة[1] بالمال لزيد على حال . فان الظواهر قد تعين فيها بحكم الشريعة أمر آخر ، فلا يتركها اعتمادا على مجرد المكاشفة أو الفراسة ، كما لا يعتمد فيها على الرؤيا النومية . ولو جاز ذلك لجاز نقض الاحكام بها ، وان ترتبت في الظاهر موجباتها ، وهذا غير صحيح بحال . فكذا ما نحن فيه .

وقد جاء في الصحيح : « انكم تختصمون الىّ ، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض ، فأحكم له على نحو ما أسمع منه » الحديث[2] فقيد الحكم بمقتضى ما يسمع وترك ما وراء ذلك . وقد كان كثير من الأحكام التي تجري على يديه يطلع على أصلها وما فيها من حق وباطل ، ولكنه عليه الصلاة والسلام لم يحكم الا على وفق ما سمع ، لا على وفق ما علم ، وهو أصل في منع الحاكم أن يحكم بعلمه [3]. أ هـ

وقد كان ، صلى الله عليه وسلم يعلم من دخائل المنافقين وبواطن كفرهم ما يعلم ولكنه لم يعاملهم وفقا لما كشف الله له من بواطنهم ، بل عاملهم حسب ظواهرهم ، وأحرى عليهم أحكام الاسلام ، ومنحهم حقوق المسلمين في الحياة وبعد الممات .

وبهذا رد على من أراد من الصحابة أن يعاملهم معاملة الكفار المجاهرين ، فقال : أخشى أن يتحدث الناس ان محمدا يقتل أصحابه !

وهكذا أمرنا أن نحكم بالظاهر ، والله يتولى السرائر ، ولم نؤمر أن نشق عن قلوب الناس .

في هـــذه الأمـــور يتحـــدد النـــزاع :

اذا كانت المدرسة السلفية ـ وعلى رأسها شيخ الاسلام ابن تيمية ، وتلميذه ابن القيم ـ لا ترفض الكشف الصحيح ، والفراسة الصادقة ، والرؤيا الصالحة ، وكان هذا موقف

---

(١) لعلها : ولا الحكم .

(٢) بقيته (فمن قضيت له بشيء من حق أخيه فلا يأخذنه فانما أقطع له قطعة من النار) أخرجه الشيخان .

(٣) الموافقات جـ ٢ ص ٢٦٦ ، ٢٦٧ ، ٢٦٨ .

الربانيين الراسخين من علماء الأمة كالشاطبي وغيره ، فأين يكون موضع النزاع بين المتصوفة وغيرهم ؟

نستطيع أن نحدد مواضع النزاع في ستة أمور :

(١) زعمهم أن الهامهم أو كشفهم دليل شرعي ، يؤخذ منه الحكم بالحل أو الحرمة أو الكراهة أو الوجوب ، أو الاستحباب .
بل قد يجعلون الهامهم حجة على الشرع نفسه ، فاذا حرم الشرع ، وحلل الهامهم أو العكس ، فان الهامهم هو الحجة المعتمدة ، والدليل والمرجح .

(٢) ومعنى هذا انهم يضفون على الهاماتهم وكشوفهم العصمة والقداسة ، فهي الصواب الذي لا يحتمل الخطأ بحال ، على خلاف أقوال الأئمة المجتهدين التي تحتمل الخطأ والصواب .

(٣) تحقيرهم للعلم الشرعي ، علم الكتاب والحديث ، والفقه ، وغيرها ، الذي اعتبر طلبه فريضة على كل مسلم ومسلمة ، وادعاؤهم أنهم لا حاجة لهم إلى أخذ العلم من أسبابه ووسائطه النقلية ، فهم يأخذونه مباشرة عن الله تعالى : « حدثني قلبي عن ربي » .

(٤) تفرقتهم بين (الشريعة) و (الحقيقة) ، أو بين (العلم) الذي يأتي به (النص) و (المعرفة) التي يأتي بها (الكشف) واعتبار الأول من نصيب العوام والأخرى من حظ الخواص .

(٥) اعتبارهم الكشف هو غاية الغايات التي يسعون إليها ، ويحرصون عليها كأنما أصبحت عبادتهم ومجاهدتهم ، ابتغاء الكشف لا ابتغاء وجه الله .

(٦) اتخاذهم إلى هذا الكشف طرقا مبتدعة لم يجيء بها كتاب ولا سنة ، ولا عمل بها سلف الأمة .

ويمكن ادماج الأمرين الخامس والسادس ، فتكون المواضع خمسة .

تمحيص وتصحيح :

أما الأمر الأول ـ وهو القول بحجية الالهام ـ فقد بينا موضع البطلان فيه ، وأوردنا الشبهات التي استدل بها من ذهبوا إلى هذا القول المبتدع ، ورددنا على هذه الشبهات واحدة

واحدة بالتفصيل الذي سمح به المقام .

وبقى أن ألقي الضوء على النقاط الأربع الأخرى ، ليتبين الحق من الباطل فيها .

ادعـاء العصـمة لمـا جـاء عـن طـريـق الكشـف والالهـام :

من النقاط الأساسية التي خطأ فيها المحققون من علماء السنة الطائفة التي غلت في اثبات الالهام وحجيته : هي اضفاؤهم على ما جاءهم عن طريق الالهام والكشف لونا من القداسة والعصمة ، بدعوى انه من الله تعالى ، وما كان من عند الله فهو حق لا يدخله باطل .

واذا كانت أقوال الائمة المجتهدين منذ عصر الصحابة فمن بعدهم قابلة للصواب والخطأ ، وهم مأجورون على الصواب أجرين ، ومأجورون على الخطأ أجرا واحدا ، لاخلاصهم واستفراغهم الوسع في تحرى الصواب وتحصيله ـ فان خواطر الصوفية والهاماتهم لا تقبل الخطأ في زعمهم .

ولهذا وجدنا مثل صاحب (فواتح الرحموت شرح مسلم الثبوت) في أصول الفقه وهو ذو نزعة صوفية ظاهرة ، يرد على العلامة ابن الهمام الحنفي ـ الذي نفى أن يكون الالهام حجة أصلا لانعدام ما يوجب نسبته إلى الله تعالى ـ قائلا : ان الالهام لا يكون الا مع خلق علم ضروري انه من عند الله تعالى ، أو من عند الروح المحمدي ، فحينئذ لا يتطرق إليه شبهة الخطا ، وهذا النحو من العلم أعلى مما يحصل بالادلة غير القاطعة ، فالعجب كل العجب من مثل هذا الشيخ قد رفض وعاء من العلم ، ولعله زعم أن الالهام ما يحدث في القلب من قبيل الخطرات ، وليس كذلك ، أما سمعت ما كتب الشيخ قطب وقته أبو يزيد البسطامي قدس سره الشريف لبعض من المحدثين : أنتم تأخذون عن ميت فتنسبون إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وأصحابه وسلم ، ونحن نأخذ من الحى الذي لا يموت ! وان تأملت في مقامات الاولياء ومواجيدهم وأذواقهم كمقامات الشيخ محيى الدين ، وقطب الوقت محيى الملة والدين السيد عبد القادر الجيلاني ، الذي قدمه على رقاب كل ولى ، والشيخ سهل بن عبد الله التستري والشيخ أبى مدين المغربي والشيخ أبى يزيد البسطامي وسيد الطائفة الجنيد البغدادي والشيخ أبى بكر الشبلي والشيخ عبد الله الانصاري والشيخ أحمد النامقي ، وغيرهم قدست أسرارهم ـ **علمت أن ما يلهمون به لا يتطرق إليه احتمال وشبهة ! بل هو حق حق حق** ، مطابق لما في نفس الأمر ! ويكون مع خلق علم ضروري أنه من الله تعالى ، لكن لا ينالون هذا الوعاء من العلم الا بالمدد المحمدي وتأييده ، لا بالذات من غير وسيلة

أصلا ، وان تأملت في كلام الشيخ الأكبر خليفة الله في الأرضين خاتم فص الولاية الشيخ محيى الملة والدين الشيخ محمد بن العربى قدس سره ووفقنا لفهم كلماته الشريفة ، لما بقى لك شائبة وهم وشك في أن ما يلهمون به من الله تعالى . ومما يصلح ههنا انه علم ضرورة من الدين أن أولياء هذه الأمة أفضل من أولياء الامم السابقين كما أن نبيهم أفضل من نبى السابقين ، ولاشك أن الأولياء الذين كانوا في بنى اسرائيل مثل مريم وأم موسى وزوجة فرعون كان يوحى إليهم ، ولا أقل من أن يكون الهاما ، ولا يكون الا مع خلق علم ضروري أنه من الله تعالى ، فهو حجة قاطعة ، ولو لم يكن أحد من هذه الأمة المرحومة الفاضلة منهم أفضل في تحصيل العلم القطعي ، فتكون مفضولة عنهم غاية المفضولية ، لأن التفاضل ليس الا بالعلم ، والفضل بما عداه غير معتد به ، ولا خلف أشنع من هذا اللازم فافهم[1].

وقد نقلنا من كلام شيخ الاسلام ابن تيمية ما يرد على آخر هذه المقولة ، باستغناء هذه الأمة عن المحدثين والملهمين ، بكمال رسالة نبيهم ، وتمام شريعته ، ولهذا كانت صيغة الحديث « فان يكن في امتى منهم احد فعمر » .

اما ما ذكره صاحب الفواتح ، فهو كلام خطابي غير علمي ، ومجرد دعاوى عريضة من غير برهان . وقد خلط في الاسماء التى حشرها الحابل بالنابل ، والسني بالمبتدع ، والموحد بالحلولي والاتحادي . ومن عجب ان يكتب هذا في علم الأصول ، الذي هو ميزان العقول ، ومنطق المنقول !

وما قاله صاحب الفواتح هذا وامثاله شبيه بما قاله الشيعة في أئمتهم ، وهو ما أنكره ، أهل السنة عليهم .

فقد انتهى قول الشيعة الاثنا عشرية بالهام أئمتهم الاثنى عشر ، إلى القول بعصمتهم ، فما يلهمونه لا يتطرق إليه احتمال خطأ ، لأنه ليس ناشئا عن اجتهاد ، كسائر الائمة ، يحتمل الصواب والخطأ ، ويؤجر فيه المصيب مرتين ، والمخطىء مرة واحدة . انما هو الهام من الله للامام يكشف له به ما غاب عن غيره ، فهو الصواب حتما ، سواء أكان خبرا أم حكما . فان كان خبرا فهو الصدق ولا بد ، وان كان حكما فهو العدل لا مراء !

---

(١) فواتح الرحموت جـ ٢ ص ٣٧٢ .

وبهذا أثبتوا عصمة لغير رسول الله صلى الله عليه وسلم ، واوجبوا طاعة لغير الله ورسوله ، على خلاف ما قررته محكمات القرآن الكريم ، وبينات الحديث الشريف .

بل لقد بلغ الاعتداد بالالهام الذي يمنح لبعض الناس في بعض المواقف أو القضايا : ان قال من قال من الغلاة والمنحرفين : ان باب النبوة لم يغلق ، وان الوحى الذي نزل على محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ لم يكن هو الوحى الاخير ، بل يمكن ان ينزل على غيره .

بل تطاول بعضهم في وقاحة وسفالة ، ممن ينتسب إلى فلسفة الاشراق ، فقال لعنه الله : لقد حجر ابن آمنة واسعا حين قال : لا نبى بعدي !

واعتذر إلى الله وإلى رسوله من وقاحة العبارة وسوء أدبها ، وكل اناء ينضح بما فيه !

لا عصـــمـــة لغير الكتـــاب والســـنة :

ومن الواجب أن نقرر هنا بكل وضوح ويقين لا يعتريه ريب :

انه لا عصمة لغير ما ثبت عن الله ورسوله . وكل احد بعد ذلك يؤخذ من كلامه ويرد عليه . ان الله أمرنا أن نرجع في معرفة أحكام شرعه إلى كتابه تعالى وسنة نبيه ، وقال : « اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء » (الاعراف : ٣) وقال : « قل أطيعوا الله وأطيعوا الرسول » (النور : ٥٤) وقال : « وان تطيعوه تهتدوا » (النور : ٥٤) وقال : « وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا » (الحشر : ٧) وقال : « فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم » (النور : ٦٣) وقال : « فان تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول » (النساء : ٥٩) .

فلم يأمرنا أن نرجع إلى قلوبنا أو أذواقنا أو خواطرنا وما يكشف لنا ، فان شيئا من ذلك لا عصمة له ، وقد يصح مرة ولا يصح أخرى .

قال الشيخ أبو الحسن الشاذلى : قد ضمنت لنا العصمة فيما جاء به الكتاب والسنة ، ولم تضمن لنا العصمة في الكشوف والالهام[1] .

ولهذا كان أول المحدثين الملهمين في هذه الأمة ـ وهو عمر بن الخطاب كما ثبت في الصحيحين ـ يرجع إلى القرآن والسنة ويحكمهما في كل ما يعرض له .

---

(١) نقله عنه شيخ الاسلام ابن تيمية في فتاواه ، مجموع الفتاوى جـ٢ ص ٩١ .

يقول شيخ الاسلام ابن تيمية : « كان عمر بن الخطاب وقافا عند كتاب الله ، وكان أبو بكر الصديق يبين له أشياء تخالف ما يقع له . كما بين له يوم الحديبية ، ويوم موت النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويوم قتال مانعي الزكاة ، وغير ذلك .

وكان عمر بن الخطاب يشاور الصحابة ، فتارة يرجع إليهم ، وتارة يرجعون إليه ، وربما قال القول فترد عليه امرأة من المسلمين قوله ، وتبين له الحق فيرجع إليها ، ويدع قوله .

وربما يرى رأيا فيذكر له حديث عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيعمل به ويدع رأيه ، وكان يأخذ بعض السنة عمن هو دونه في قضايا متعددة ، وكان يقول القول ، فيقال له : أحسنت ، فيقول : والله ما يدرى عمر أصاب الحق أم أخطاء !

فاذا كان هذا امام المحدثين ، فكل ذى قلب يحدثه عن ربه إلى يوم القيامة هو دون عمر ، فليس فيهم معصوم ، بل الخطأ يجوز عليهم كلهم ، وان كان طائفة تدعى ان الولى محفوظ ، وهو نظير ما يثبت للانبياء من العصمة ـ والحكيم الترمذي قد اشار إلى هذا ـ فهذا باطل مخالف للسنة والاجماع .

ولهذا اتفق المسلمون على أن كل أحد من الناس يؤخذ من قوله ويترك الا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وان كانوا متفاضلين في الهدى ، والنور والاصابة .

ولهذا كان الصديق أفضل من المحدَّث ، لان الصديق يأخذ من مشكاة النبوة ، فلا يأخذ الا شيئا معصوما محفوظا . أما المحدث فيقع له صواب وخطأ ، والكتاب والسنة تميز صوابه من خطئه ، وبهذا صار جميع الأولياء مفتقرين إلى الكتاب والسنة ، فما وافق آثار الرسول فهو الحق ، وما خالف ذلك فهو باطل ، وان كانوا مجتهدين فيه ، والله تعالى يثيبهم على اجتهادهم ، ويغفر لهم خطأهم .

ومعلوم ان السابقين الأولين أعظم اهتداء واتباعا للآثار النبوية ، فهو أعظم ايمانا وتقوى[1]» أ هـ .

نتائج الالهام غير ثابتة ولا مطردة :

يؤكد ذلك ان الالهام أو الكشف ـ كما قال صاحب (المنار) رحمه الله في تفسيره ـ انما هو

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الاسلام جـ ٢ ص ٢٢٦ ، ٢٢٧ .

ضرب من ادراك النفس الناطقة ، غير ثابت ولا مطرد ، فليس بدليل عقلي ولا شرعي ، انما هو ادراكات ناقصة تخطىء وتصيب ، وقد عرفت أسبابه الطبيعية ، وأن منها ما هو فطري ، ومنها ما هوكسبي وصناعي ، كالتنويم المغناطيسي المعروف في هذا العصر ، وما يسمونه قراءة الأفكار ، ومراسلة الأفكار ، ويشبهونه بنقل الأخبار بخطوط الاسلاك الكهربائية وبدونها ، وهو يقع للمؤمن والكافر ، والبر والفاجر ، ويعترف به صوفية المسلمين لصوفية الهندوس وغيرهم ، كما يعترفون بتلبيس الشياطين عليهم فيه ، وقلة من يميز بين الكشف الشيطاني والكشف الحقيقي منهم ، ولا يصح أن يسمى حقيقيا الا ما وافق نصا قطعيا .

ومن دلائل الخطأ والتلبيس والتخيلات في الكشف الذي يسمونه « النوراني » تعارض أهله وتناقضهم فيه ، وما يذكرونه فيه من معلوماتهم المختلفة باختلاف معلوماتهم الفنية والخرافية والشرعية . . . فترى بعضهم يذكر في كشفه (جبل قاف) المحيط بالأرض ! و (الحية) المحيطة به ! كما تراه في ترجمة الشعراني للشيخ أبي مدين ، وهو من الخرافات التي لا حقيقة لها .

ومنهم من يذكر في كشفه الأفلاك وكواكبها على الطريقة اليونانية الباطلة أيضا ، وأكثرهم يذكرون في كشفهم الاحاديث الموضوعة ، فإن اعترض عليهم ـ أو على المفتونين بكشفهم ـ علماء الحديث ، قالوا : إن الحديث قد صح في كشفنا ، وإن لم يصح في رواياتكم ، وكشفنا أصح ، لأنه من علم اليقين ، وعلمكم ظني !

والحاصل أن كشفا هذا شأنه وشأن أهله ، إن صح أن نصدقه فيما لا يخالف الشرع وعقائده وأحكامه ، فلا يصح لمن يؤمن بكتاب الله وسنة رسوله ، أن يصدق منه ما يخالفهما ، وأن يثبت من أمر عالم الغيب ما لم يثبت بهما ، وما أغنانا عن هذا كله !(١)

---

(١) تفسير المنار للعلامة محمد رشيد رضا جـ ١١ ص ٤٤٧ ط . رابعة ـــ

وقد ذكر العلامة الآلوسي عن صاحب الفتوحات المكية في الباب (٣٧١) من أوصاف العرش وقوائمه وأنه أحد حملته ! وأنه أنزل عند أفضل قوائمه ! قال : وأطال الكلام في هذا الباب ، وأتى فيه بالعجب العجاب ، وليس له في أكثر ما ذكره فيه ، مستند نعلمه من كتاب الله تعالى ، أو سنة رسوله صلى الله عليه وسلم ومنه ما لا يجوز أن نقول بظاهره . أهـ . (روح المعاني حـ ١٦/١٦١) .

ضـــلالـــة ازدراء العلـــم الشـــــرعـــي :

ومن ضلالات المعظمين للكشف والالهام ، والقائلين بحجيته ، المؤمنين بقدسيته ، ازدراؤهم للعلم الشرعي : علم القرآن والسنة والفقه والاصول ، وما تفرع عنها ، وتحقير اولئك الذين يذيبون شموع أعمارهم في طلبه وتحصيله ، والتعمق فيه ، مستغنين بكشفهم المزعوم عن السعي لتلقي العلم من أهله ، جاهلين أو متجاهلين : ان الانبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما ، انما ورثوا امهم العلم ، وأن « طلب العلم فريضة على كل مسلم[1] » كما نطق بذلك حديث المعصوم وكما اجمعت عليه الأمة .

والعلم المفروض طلبه هنا هو علم النبوة ، الذي به يعرف الله سبحانه ، ويعرف الطريق إليه ، ويعرف ما يحبه وما يكرهه ، ولا طريق لذلك الا معرفة الشريعة التي جاء بها محمد صلى الله عليه وسلم .

فالعلم بشرع الله تعالى ، كما نزل به وحيه إلى رسوله في كتابه وسنته ، هو الدليل المعصوم الذي لا يخطىء ولا ينسى .

وهو - كما قال ابن القيم - تركه الانبياء ، وتراثهم ، وأهله عصبتهم وورّاثهم ، وهو حياة القلوب ، ونور البصائر ، وشفاء الصدور ، ورياض العقول ولذة الأرواح ، وأنس المستوحشين ، ودليل المتحيرين ، وهو الميزان الذي به توزن الأقوال والأعمال والأحوال .

وهو الحاكم المفرق بين الشك واليقين ، والغى والرشاد ، والهدى والضلال به يعرف الله ويعبد ، ويذكر ويوحد ، ويحمد ويمجد ، وبه اهتدى إليه السالكون ، ومن طريقه وصل إليه الواصلون ، ومن بابه دخل عليه القاصدون.

به تعرف الشرائع والاحكام ، ويتميز الحلال من الحرام ، وبه توصل الأرحام وبه تعرف مراضي الحبيب ، وبمعرفتها ومتابعتها يوصل إليه من قريب .

وهو امام والعمل مأموم ، وهو قائد والعمل تابع ، وهو الصاحب في الغربة والمحدث في الخلوة ، والانيس في الوحشة ، والكاشف عن الشبهة ، والغنى الذي لا فقر على من ظفر

---

(١) روى من طرق كثيرة عن عدد من الصحابة ، ولذا صححه السيوطي لغيره كما في (فيض القدير) وصححه من المعاصرين الالباني ايضا في تخريج كتابنا (مشكلة الفقر وكيف عالجها الاسلام) وذكره في صحيح الجامع الصغير وزيادته .

بكنزه ، والكنف الذي لا ضيعة على من آوى إلى حرزه .

مذكراته تسبيح ، والحبث عنه جهاد ، وطلبه قربة ، وبذله صدقة ، ومدارسته تعدل الصيام والقيام ، والحاجة إليه أعظم منها إلى الشراب والطعام .

قال الامام أحمد ـ رضى الله عنه ـ : الناس إلى العلم أحوج منهم إلى الطعام والشراب ، لان الرجل يحتاج إلى الطعام والشراب في اليوم مرة أو مرتين وحاجته إلى العلم بعدد انفاسه .

وروينا عن الشافعي ـ رضى الله تعالى عنه ـ أنه قال : طلب العلم أفضل من صلاة النافلة ، ونص على ذلك أبو حنيفة رضى الله عنه .

وقال ابن وهب : كنت بين يدى مالك ـ رضى الله عنه ـ فوضعت ألواحي وقمت أصلي ، فقال : ما الذي قمت إليه بأفضل مما قمت عنه . . . ذكره ابن عبد البر وغيره .

واستشهد الله ـ عز وجل ـ بأهل العلم على أجل مشهود به وهو « التوحيد ، وقرن شهادتهم بشهادته ، وشهادة ملائكته[1]. وفي ضمن ذلك تعديلهم ، وانه سبحانه وتعالى لا يستشهد بمجروح .

ومن ههنا ـ والله أعلم ـ يؤخذ الحديث المعروف « يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ينفون عنه تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين[2]» .

وهو حجة الله في أرضه ، ونوره بين عباده ، وقائدهم ودليلهم إلى جنته ، ومدنيهم من كرامته . ويكفى في شرفه : أن فضل أهله على العباد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب ، وان الملائكة لتضع لهم أجنحتها ، وتظلهم بها ، وأن العالم يستغفر له من في السموات ومن في الأرض ، حتى الحيتان في البحر ، وحتى النمل في جحرها ، وأن الله وملائكته يصلون على معلمى الناس الخير .

ولقد رحل كليم الرحمن موسى بن عمران ـ عليه الصلاة والسلام ـ في طلب العلم هو

---

(١) يشير إلى قوله تعالى : « شهد الله أنه لا اله الا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط » (آل عمران :١٨) .

(٢) رواه البيهقي في سننه واقواه ابن القيم في (مفتاح دار السعادة) وذكره الالباني في صحيح الجامع الصغير .

وفتاه ، حتى مسهما النصب في سفرهما في طلب العلم ، حتى ظفر بثلاث مسائل ، وهو من أكرم الخلق على الله وأعلمهم به .

وأمر الله رسوله ان يسأله المزيد منه فقال : « وقل رب زدني علما » (طه : ١١٤) وحرم الله صيد الجوارح الجاهلة ، وانما يباح للأمة صيد الجوارح العالمة ، فهكذا جوارح الانسان الجاهل لا يجدى عليه صيدها من الأعمال شيئا[١]» . ا هـ .

الصوفية الأولون ملتزمون باتباع الشريعة :

ولا غرو أن وجدنا من سادات الصوفية من أنكر على المنحرفين هذه الدعاوى العريضة التي زعموا فيها الاستغناء عن علم الكتاب والسنة .

ونذكر هنا بعض ما نقله ابن القيم في (مدارج السالكين) عن المعتدلين من أكابر شيوخهم . قال سيد الطائفة وشيخهم الجنيد بن محمد رحمه الله : الطرق كلها مسدودة على الخلق الا على من اقتفى آثار الرسول صلى الله عليه وسلم .

وقال : من لم يحفظ القرآن ، ويكتب الحديث ، لا يقتدى به في هذا الأمر ، لان علمنا مقيد بالكتاب والسنة .

وقال : مذهبنا هذا مقيد بأصول الكتاب والسنة .

وقال أبو حفص ـ رحمه الله ـ : من لم يزن أفعاله وأحواله في كل وقت بالكتاب والسنة ، ولم يتهم خواطره ، فلا يعد في ديوان الرجال .

وقال أبو سليمان الداراني ـ رحمه الله ـ : ربما يقع في قلبي النكتة من نكت القوم أياما فلا أقبل منه الا بشاهدين عدلين : الكتاب ، والسنة .

وقال أبو يزيد : عملت في المجاهدة ثلاثين سنة ، فما وجدت شيئا أشد على من العلم ومتابعته . .

وقال مرة لخادمه : قم بنا إلى يهذا الرجل الذي قد شهر نفسه بالصلاح لنزوره فلما دخلا عليه المسجد تنخع ، ثم رمى بها نحو القبلة ، فرجع فلم يسلم عليه ، وقال : هذا غير

---

(١) مدارج السالكين جـ ٢ ص ٤٦٩ وما بعدها .

مأمون على أدب من آداب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، فكيف يكون مأمونا على ما يدعيه ؟

وقال : لقد هممت أن أسأل الله تعالى ان يكفيني مؤنة النساء . ثم قلت : كيف يجوز لى أن أسأل الله هذا ، ولم يسأله رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ؟ ولم أسأله . ثم ان الله كفاني مؤنة النساء ، حتى لا أبالى استقبلتني امرأة أو حائط .

وقال : لو نظرتم إلى رجل أعطى من الكرامات إلى أن يرتفع في الهواء ، فلا تغتروا به ، حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهى ، وحفظ الحدود ، وآداب الشريعة !

وقال أحمد بن أبى الحوارى ـ رحمه الله ـ من عمل عملا بلا اتباع سنة ، فباطل عمله[1].

ن القيم :

« واما الكلمات التي تروى عن بعضهم : من التزهيد في العلم ، والاستغناء عنه ، كقول من قال : نحن نأخذ علمنا من الحى الذي لا يموت ، وأنتم تأخذونه من حي يموت » !

وقول الآخر ـ وقد قيل له : ألا ترحل حتى تسمع من عبد الرزاق ؟ فقال : ما يصنع بالسماع من عبد الرزاق ، من يسمع من الخلاق؟!

وقول الآخر : العلم حجاب بين القلب وبين الله عز وجل !

وقول الآخر : اذا رأيت الصوفي يشتغل بـ« أخبرنا » و « حدثنا » فاغسل يدك منه !

وقول الآخر : لنا علم الحرق ، ولكم علم الورق .

ونحو هذا من الكلمات التي أحسن أحوال قائلها : أن يكون جاهلا يعذر بجهله أو شاطحا معترفا بشطحه ، والا فلولا عبد الرزاق وأمثاله ، ولولا « اخبرنا » و « حدثنا » لما وصل إلى هذا وأمثاله شيء من الاسلام .

ومن أحالك على غير « أخبرنا » و « حدثنا » فقد أحالك : اما على خيال صوفي ، أو قياس فلسفي ، أو رأى نفسي . فليس بعد القرآن و « اخبرنا » و « حدثنا » الا شبهات المتكلمين ، وآرا المنحرفين ، وخيالات المتصوفين ، وقياس المتفلسفين . ومن فارق

---

(١) مدارج السالكين جـ ٢ ص ٤٦٤ ـ ٤٦٥ .

الدليل ، ضل عن سواء السبيل ، ولا دليل إلى الله والجنة ، سوى الكتاب والسنة . وكل طرق لم يصحبها دليل القرآن والسنة فهي من طرق الجحيم ، والشيطان الرجيم[1]» .

العـــلم اللـــدني :

أما العلم اللدني الذي طنطن به بعضهم ، وزعم الاستغناء به عن العلم الكسبي ، فقد قال فيه ابن القيم في شرح ما جاء في كلام الهروي عنه في « منازل السائرين » :

« العلم اللدني » هو العلم الذي يقذفه الله في القلب بلا سبب من العبد ، ولا استدلال ، ولهذا سمى لدنيا . قال تعالى « علم الانسان ما لم يعلم » (العلق : ٥) ولكن هذا العلم اخص من غيره ، ولذلك اضافه إليه سبحانه ، كبيته وناقته وبلده وعبده ، ونحو ذلك . فتضمحل العلوم المستندة إلى الادلة والشواهد في العلم اللدني ، الحاصل بلا سبب ولا استدلال ، هذا مضمون كلامه .

قال ابن القـــيم :

« ونحن نقول : ان العلم الحاصل بالشواهد والادلة ، هو العلم الحقيقي ، وأما ما يدعى حصوله بغير شاهد ولا دليل ، فلا وثوق به « وليس بعلم » نعم قد يقوى العلم الحاصل بالشواهد ويتزايد ، بحيث يصير المعلوم كالمشهود ، والغائب كالمعاين ، وعلم اليقين كعين اليقين ، فيكون الأمر شعورا أولا ، ثم تجويزا ، ثم ظنا ، ثم علما ، ثم معرفة ، ثم علم يقين ، ثم حق يقين ، ثم عين يقين ، ثم تضمحل كل مرتبة في التي فوقها ، بحيث يصير الحكم لها دونها . فهذا حق .

وأما دعوى وقوع نوع من العلم بغير سبب من الاستدلال ، فليس بصحيح . فان الله سبحانه ربط التعريفات باسبابها ، كما ربط الكائنات بأسبابها ، ولا يحصل لبشر علم الا بدليل يدله عليه ، وقد أيد الله سبحانه رسله بأنواع الادلة والبراهين التي دلتهم على ان ما جاءوا به هو من عند الله ، ودلت أممهم على ذلك . وكان معهم أعظم الادلة والبراهين على ان ما جاءهم هو من عند الله ، وكانت براهينهم أدلة وشواهد لهم وللامم . فالادلة والشواهد التي كانت لهم ، ومعهم : أعظم الشواهد والادلة . والله تعالى شهد بتصديقهم

---

(١) مدارج السالكين : جـ ٢ ص ٤٦٨ .

بما أقام عليه من الشواهد ، فكل علم لا يستند إلى دليل فدعوى لا دليل عليها ، وحكم لا برهان عند قائله . وما كان كذلك لم يكن علما ، فضلا عن ان يكون لدنيا .

فالعلم اللدني : ما قام الدليل الصحيح عليه ، انه جاء من عند الله على لسان رسله ، وما عداه فلدني من لدن نفس الانسان ، منه بدأ وإليه يعود .

وقد انبثق سد العلم اللدني ، ورخص سعره ، حتى ادعت كل طائفة ان علمهم لدني . وصار من تكلم في حقائق الايمان والسلوك وباب الاسماء والصفات بما يسنح له ، ويلقيه شيطانه في قلبه ، يزعم ان علمه لدني !! فملاحدة الاتحادية ، وزنادقة المنتمين إلى السلوك يقولون : ان علمهم لدني ! وقد صنف في العلم اللدني متهوكو المتكلمين ، وزنادقة المتصوفين ، وجهلة المتفلسفين ، وكل يزعم ان علمه لدني ! وصدقوا وكذبوا ، فان « اللدني » منسوب إلى « لدن » بمعنى « عند » فكأنهم قالوا : العلم العندي . ولكن الشأن فيمن هذا العلم من عنده ومن لدنه ، وقد ذم الله تعالى بأبلغ الذم من ينسب إليه ما ليس من عنده كما قال تعالى « ويقولون : هو من عند الله وما هو من عند الله ، ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون » (آل عمران : ٧٥) ، وقال تعالى : « فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ، ثم يقولون هو من عند الله » (البقرة : ٧٩) ، وقال تعالى : « ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا ، أو قال : أوحى إلى ، ولم يوح إليه شيء » (الانعام : ٩٣) ، فكل من قال : هذا العلم من عند الله ـ وهو كاذب في هذه النسبة ـ فله نصيب وافر من هذا الذم . وهذا في القرآن كثير ، يذم الله سبحانه من أضاف إليه ما لا علم به ، ومن قال عليه ما لا يعلم . ولهذا رتب سبحانه المحرمات أربع مراتب ، وجعل أشدها القول عليه بلا علم . فجعله أخر مراتب المحرمات التي لا تباح بحال[1] . بل هي محرمة في كل ملة ، وعلى لسان كل رسول ، فالقائل : ان هذا « علم لدني » لما لا يعلم به من عند الله ، ولا قام عليه برهان من الله انه من عنده : كاذب مفتر على الله ، وهو من أظلم الظالمين ، وأكذب الكاذبين[2] » .

---

(١) اشارة إلى قوله تعالى : « قل : انما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والاثم والبغى بغير الحق ، وان تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا ، وان تقولوا على الله ما لا تعلمون » (الاعراف : ٣٣) .

(٢) ص ٤٣١ ـ ٤٣٣ من كتاب مدارج السالكين ـ الجزء الثالث .

على أن كثيرا من الصوفية المتأخرين رفضوا حجية الإلهام » قال العلامة الآلوسي في تفسيره عند قصة الخضر من سورة الكهف :

« وممن صرح بأن الإلهام ليس بحجة من الصوفية : الإمام الشعراني وقال : قد زل في هذا الباب خلق كثير فضلوا وأضلوا ، ولنا في ذلك مؤلف سميته (حد الحسام في عنق من أطلق ايجاب العمل بالإلهام) وهو مجلد لطيف[1] . أهـ .

فمن احتج بالإلهام على حكم شرعي فاحتجاجه مردود عليه[2] .

---

(١) روح المعاني للآلوسي حـ ١٦/١٧ .

(٢) قال العلامة ابن حجر الهيثمي الشافعي في « التحفة » : « وقع لليافعي ـ مع جلالته ـ في روضه : لو أذن الله تعالى لبعض عباده أن يلبس ثوب حرير مثلا ، وعلم الاذن يقينا ، فلبسه ، لم يكن منتهكا للشرع ، وحصول اليقين له من حيث حصوله للخضر بقتله الغلام ، إذهو وليّ لا نبيّ على الصحيح أ هـ أهـ .

قال : وقوله « مثلا » ربما يدخل فيه بعض المتصوفة الذي ذكره الغزالي (أن له مع الله حالا أسقط عنه نحو الصلاة أو تحريم شرب الخمر . . . الخ) .

وبفرض أن اليافعي لم يرد بـ « مثلا » إلا ما هو مثل الحرير في أن استحلاله غير مكفر ، لعدم علمه ضرورة ، فإن أراد بعدم انتهاكه للشرع : أن له نوع عذر ، وإن كنا نقضي عليه بالاثم ، بل والفسق إن أراد ذلك ، فله نوع اتجاه .

أو انه لا حرمة عليه في لبسه ، كما هو الظاهر من سياق كلامه فهو زلة منه ، لأن ذلك اليقين إنما يكون بالإلهام ، وهو ليس بحجة عند الأئمة ، إذ لا ثقة بخواطر من ليس بمعصوم .

وبفرض أنه حجة ، فشرطه ـ عند من شذ بالقول به ـ ألا يعارضه نص شرعي ، كالنص بمنع لبس الحرير المجمع عليه ، إلا من شذ ممن لا يعتدّ بخلافه فيه .

وبتسليم أن الخضر وليّ ـ وإلا فالأصح أنه نبيّ ـ فمن أين لنا أن الإلهام لم يكن حجة في ذلك الزمن ؟ وبفرض أنه غير حجة ، فالأنبياء ، في زمنه موجودون ، فلعل الاذن في قتل الغلام جاء إليه على يد أحدهم . أهـ(تحفة المحتاج لابن حجر الهيثمي حـ ٤ ص ٨٤) .

فـــرقـــة بين الشـــريعـــة والحقيقـــة :

ان اعتداد كثير من الصوفية بأذواقهم وخواطر نفوسهم ، وما يعرض لهم من الهام وكشف ، وادعاء بعضهم العصمة لهذه الالهامات والخواطر ، قد انتهى بطائفة منهم إلى الوقوع في ضلالات عدة .

فمنها : تفرقتهم بين « الشريعة » التي يجيء بها النص ، و « الحقيقة » التي يجيء بها الكشف ، واعتبارهم الأولى من نصيب العوام ، والثانية من حظ الخواص . ومما يقولونه في ذلك : من نظر إلى الخلق بعين الشريعة مقتهم ، ومن نظر إليهم بعين الحقيقة عذرهم !

وقد يعتبر العمل معصية بل كبيرة في نظر أهل الشريعة ، على حين يعد مباحا بل قربة في نظر أهل الحقيقة !

قصـــة موســـــى والخضـــــر :

ويستدلون على هذه التفرقة بقصة موسى والخضر ، التي ذكرها الله في سورة الكهف . فقد كان موسى ينظر بعين الشريعة فأنكر خرق السفينة ، وقتل الغلام بغير جناية ، وأقام الجدار لقوم لا يستحقون اكراما ولا معونة . وكان الخضر ينظر بعين الحقيقة ، ولهذا بين لموسى ما وراء كل فعلة من هذه الفعلات من أسرار وغيوب ، فسلم موسى للخضر ، لان موسى لم يكن معه الا علم الظاهر ، علم الشريعة ، والخضر معه علم الباطن ، وهو علم الحقيقة .

والعلم الذي عند الخضر لم يأت نتيجة تعلم ولا اكتساب . انما هو علم وهبي من لدن الله مباشرة وبلا واسطة ، ويسمونه « العلم اللدني » أخذا من قوله تعالى : « وعلمنا من لدناعلما » (الكهف : ٦٥) .

ومن هنا جاء عن بعض المتصوفة احتقارهم لعلم الشرع ، الذي يعرف من النصوص ، ويطلب من العلماء ، ويروى بالاسانيد ، ويسمونه « علم الورق ».

وانما يعنيهم علم « الباطن » أو « الحقيقة » أو « العلم اللدني » كما يسمونه ، علم الخضر لا علم موسى ، علم (أصحاب الاذواق) لا علم (أصحاب الأوراق) . علم الصوفية لا علم المحدثين والفقهاء .

بل قال بعضهم : ان العلم حجاب بين صاحبه وبين الله !!

ولا ريب أن هذا جهل مبين ، وغرور قبيح ، وشرود عن الصراط المستقيم ، الذي سار عليه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأصحابه الكرام ، ومن تبعهم باحسان ، بل سار عليه سادة الصوفية الأوائل انفسهم .

وقد بين الامام الشاطبي في « الموافقات » أن الشريعة عامة لكل المكلفين في كل الأحوال .

فلا يخرج عنها ولى ولا غيره بدعوى الكشف أو غيره ، وأن العوائد الجارية ضرورية الاعتبار شرعا ، فليس الاطلاع على المغيبات ولا الكشف الصحيح بالذي يمنع جريانها على مقتضى الاحكام العادية . والقدوة في ذلك رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ثم ما جرى عليه السلف الصالح رضى الله عنهم .

ثم تعرض لقصة « الخضر » التي يحتج بها قوم على جواز الخروج عن ظاهر الشريعة لمن سموهم الأولياء ، أو أهل الكشف ، وقد نقلنا قوله في ردنا على القول بحجية الالهام .

وهم يسمونه صاحب العلم الشرعي « عالما » ويسمون صاحب الكشف الصوفي « عارفا » ، فالعلم عندهم كسبي استدلالي ، و« المعرفة » وهبية ضرورية ـ وهي العلم اللدني ـ والعلم له الخبر ، والمعرفة لها العيان .

ومثال هذا : انك اذا رأيت في حومة ثلج ثقبا خاليا ، استدللت به على ان تحته حيوانا يتنفس ، فهذا علم . فاذا حفرته وشاهدت الحيوان ، فهذه معرفة .

ولا مشاحة في الاصطلاح ، فلكل طائفة أن تصطلح على ما تتفاهم به ، بشرط أن تتضح المدلولات ، وتتحدد المفاهيم . ولكن الخطر هنا هو تحقير « العالم » وتقديس « العارف » ، أو اعتبار ما يجيء من طريق المعرفة معصوما ، وما يجيء من طريق العلم مظنونا أو مرفوضا .

وذلك كقول بعض المنحرفين : « العالم يسعطك الخل والخردل ، والعارف ينشقك المسك والصبر » !

قال : ومعنى هذا : انك مع العالم في تعب ، ومع العارف في راحة ، العارف يبسط عذر العوالم والخلائق ، والعالم يلوم . وقد قيل : من نظر إلى الخلق بعين « العلم » مقتهم .

ومن نظر إليهم بعين « المعرفة عذرهم[1] » !!

يقول الامام ابن القيم معقبا على هذا الكلام الخطير :

« فانظر ما تضمنه هذا الكلام ـ الذى ملمسه ناعم ، وسمه زعاف قاتل ـ من الانحلال عن الدين ، ودعوى الراحة من حكم العبودية ، والتماس الاعذار لليهود والنصارى وعباد الاوثان ، والظلمة والفجرة ، وأن أحكام الأمر والنهى ـ الواردين على ألسن الرسل ـ للقلوب بمنزلة سعط الخل والخردل ، وأن شهود الحقيقة الكونية الشاملة للخلائق ، والوقوف عليها ، والانقياد لحكمها ، بمنزلة تنشيق المسك والعنبر .

فليهن الكفار والفجار والفساق ، انتشاق هذا المسك والعنبر اذا شهدوا هذه الحقيقة وانقادو لحكمها !

ويا رحمة للابرار المحكمين لما جاء به الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ من كثرة سعوطهم بالخل والخردل !

فان قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ هذا يجوز ، وهذا لا يجوز . . وهذا حلال وهذا حرام ، وهذا يرضى الله ، وهذا يسخطه : خل وخردل عند هؤلاء الملاحدة ، والا فالحقيقة تشهدك الأمر بخلاف ذلك .

ولذلك اذا نظرت ـ عندهم ـ إلى الخلق بعين الحقيقة عذرت الجميع . فتعذر من توعده الله ورسوله أعظم الوعيد ، وتهدده أعظم التهديد .

ويالله العجب ! اذا كانوا معذورين في الحقيقة ، فكيف يعذب الله سبحانه المعذور ، ويذيقه أشد العذاب ؟

وهلا كان الغنى الرحيم أولى بعذره من هؤلاء ؟ . ا هـ[2]

اعتبار الصوفية الكشف هو غاية الغايات واتخاذهم إليه طرقا غير شرعية :

ومن الانحرافات التي وقع فيها الصوفية في موضوع الكشف والالهام والفيض اعتبارهم ذلك هو الغاية التي إليها يشمرون ، وعليها يحرصون . فكأنما عبادتهم وذكرهم لحظ أنفسهم

---

(١) اذكر انى قرأت هذا النص في قسم التصوف من كتاب « الارشادات والتنبيهات » لان سينا .
(٢) مدارج السالكين جـ ٣ ص ١٦٧ .

فيما يرد عليهم من فيض ، وما يتجلى لهم من كشف ، لا لحق ربهم عليهم ، وواجب عبوديتهم له . كما انهم يسلكون إلى هذه الغاية طريقا لم يشرعه الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولا أمر به ، ولا سلكه أصحابه ، وتابعوهم باحسان .

اقرأ في « احياء علوم الدين » للامام الغزالي قوله :

« اعلم أن ميل أهل التصوف إلى العلوم الالهامية دون التعليمية ، **فلذلك لم يحرصوا على دراسة العلم ، وتحصيل ما صنفه المصنفون** ، والبحث عن الأقاويل والادلة المذكورة ، بل قالوا : الطريق تقديم المجاهدة ، ومحو الصفات المذمومة ، وقطع العلائق كلها ، والاقبال بكنه الهمة على الله تعالى . ومهما حصل ذلك كان الله هو المتولى لقلب عبده ، والمتكفل له بتنويره بأنوار العلم ، واذا تولى الله أمر القلب فاضت عليه الرحمة ، وأشرق النور في القلب ، وانشرح الصدر ، وانكشف له سر الملكوت ، وانقشع عن وجه القلب حجاب العزة بلطف الرحمة ، وتلالات فيه حقائق الأمور الالهية ، فليس على العبد الا الاستعداد بالتصفية المجردة ، وإحضار الهمة مع الارادة الصادقة ، والتعطش التام ، والترصد بدوام الانتظار لما يفتحه الله تعالى من الرحمة ، فالانبياء والاولياء انكشف لهم الأمر ، وفاض على صدورهم النور ، لا بالعلم والدراسة والكتابة للكتب ، بل بالزهد في الدنيا ، والتبري من علائقها ، وتفريغ القلب من شواغلها ، والاقبال بكنه الهمة على الله تعالى ، فمن كان لله كان الله له ، وزعموا : أن الطريق في ذلك ـ أولا ـ بانقطاع علائق الدنيا بالكلية ، وتفريغ القلب منها ، وبقطع الهمة عن الأهل والمال ، والولد والوطن ، وعن العلم والولاية والجاه ، بل يصير قلبه إلى حالة يستوى فيها وجود كل شيء وعدمه . **ثم يخلو بنفسه في زاوية ، مع الاقتصار على الفرائض والرواتب ، ويجلس فارغ القلب مجموع الهم ، ولا يفرق فكره بقراءة قرآن ، ولا بالتأمل في تفسير ، ولا بكتب حديث ولا غيره** ، بل يجتهد ألا يخطر بباله شيء سوى الله تعالى ، فلا يزال بعد جلوسه في الخلوة قائلا بلسانه : « الله . الله » على الدوام ، مع حضور القلب حتى ينتهي إلى حالة يترك تحريك اللسان ، ويرى كأن الكلمة جارية على لسانه ، ثم يصبر عليه إلى أن يمحي أثره على اللسان ، ويصادف قلبه مواظبا على الذكر ، ثم يواظب عليه إلى أن يمحي عن القلب صورة اللفظ وحروفه وهيئة الكلمة ، ويبقى معنى الكلمة مجردا في قلبه ، حاضرا فيه ، كأنه لازم له لا يفارقه ، وله اختيار إلى أن ينتهى إلى هذا الحد ، واختيار في استدامة هذه الحالة بدفع

الوسواس ، وليس له اختيار في استجلاب رحمة الله تعالى ، بل هو بما فعله صار متعرضا لنفحات رحمة الله ، فلا يبقى الا الانتظار لما يفتح الله من الرحمة . كما فتحها على الانبياء والاولياء بهذه الطريق ، وعند ذلك اذا صدقت ارادته ، وصفت همته ، وحسنت مواظبته ، فلم تجاذبه شهواته ، ولم يشغله حديث النفس بعلائق الدنيا ، تلمع لوامع الحق في قلبه ، ويكون في ابتدائه كالبرق الخاطف لا يثبت ، ثم يعود وقد يتأخر ، وان عاد فقد يثبت ، وقد يكون مختطفا ، وان ثبت قد يطول ثباته ، وقد لا يطول ، وقد يتظاهر أمثاله على التلاحق ، وقد يقتصر على دفق واحد ، ومنازل أولياء الله تعالى فيه لا تحصر ، كما لا يحصى تفاوت خلقهم وأخلاقهم ، وقد رجع هذا الطريق إلى تطهير محض من جانبك ، وتصفية وجلاء ثم استعداد وانتظار فقط[1]» .

وقفة مع الامام الغزالي :

وانى ـ مع حبي للامام أبي حامد الغزالي ـ رضى الله عنه ـ واعجابى بعبقريته واخلاصه ـ أقف عند كلامه هذا لمناقشته كما ناقش شيوخه وخالفهم . وبذلك نضع النقط على الحروف ، والحق أحق أن يتبع .

امكان الكشف ووقوعه متفق عليه :

أولا : لا نزاع في امكان حصول الكشف ووقوعه بالفعل لبعض الناس ، وما ذكره الامام الغزالي في (الاحياء) من شواهد الشرع ومن الحكايات والتجارب ، مسلم به في جملته ، وان كانت النتائج التي رتبها عليها غير مسلمة .

فقد استدل بجملة نصوص من القرآن والحديث والآثار مثل قوله تعالى : « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا » (العنكبوت : ٦٩) ، وقوله : « ان تتقو الله يجعل لكم فرقانا » (الانفال : ٢٩) ، وقوله : « افمن شرح الله صدره للاسلام فهو على نور من ربه » (الزمر : ٢٩) وقوله تعالى : « يؤتى الحكمة من يشاء » (البقرة : ٢٦٩) ، وقوله : « ففهمناها سليمان » (الانبياء : ٧٩) ، وقوله : « ان في ذلك لايات

---

(١) احياء علوم الدين للامام الغزالي جـ ٣ ص ١٨ ، ١٩ .

للمتوسمين » (الحجر : ٧٥) ، وقوله تعالى : « قد بينا الآيام لقوم يوقنون » (البقرة : ١١٨) .

وقوله عليه الصلاة والسلام : « اللهم اعطني نورا ، وزدني نورا[١] . . . الحديث . . . ، وحديث : « لقد كان فيمن قبلكم محدثون ، فان يكن في امتى أحد فعمر[٢] » .

وقوله : « اتقوا فراسة المؤمن فانه ينظر بنور الله[٣] » ودعائه لابن عباس : اللهم فقه في الدين وعلمه التأويل[٤] » إلى غير ذلك من الآيات والأحاديث .

ادلة الغزالي لا تثبت دعواه :

ثانياً : هذه الشواهد والنصوص والتجارب والحكايات التي ذكرها الغزالي رحمه الله مسلمة في جملتها كما قلنا ، ولكنها لا تثبت دعواه فيما وضعه عنوانا لهذا الفصل من كتابه ، وهو (بيان شواهد الشرح على صحة طريق أهل التصوف في اكتساب المعرفة لا من التعلم ولا من الطريق المعتاد) فان هذه الشواهد والادلة التي ذكرها دلت على أن الانسان المؤمن التقى المجاهد لنفسه ، المراقب لربه ، الواقف عند امره ونهيه ، يرزقه الله تعالى الهداية أو النور أو الفرقان أو الحكمة أو الفهم أو الفقه أو العلم النافع . . . الخ . . . ولكنها لم تدل بحال على أن يكون كل همه انتظارها ـ وقد تجيء أو لا تجيء ويدع الطريق المعتاد الذي سلكه ورثة الانبياء ، والذي شرعه الله تعالى لتحصيل المعرفة المأمونة لحقائق الغيب ، وأحكام الشرع .

وما ذكره الغزالي ان هذا طريق الانبياء غير مسلم له ، فنبينا صلى الله عليه وسلم حين كان يتعبد لله في غار حراء ، لم يكن يطلب كشفا ولا الهاما ، وما كان يرجو شيئا ينزل عليه من السماء ، ولم يخطر له ذلك بباله ، وهذا ما قرره القرآن : « وما كنت ترجو ان يلقى اليك الكتاب الا رحمة من ربك » (القصص : ٨٦) ، بل حين جاءه الوحي كان مفاجأة هائلة

---

(١) متفق عليه من حديث ابن عباس .
(٢) متفق على متنه كما تقدم .
(٣) رواه الترمذي وحسنه بعض العلماء ، وقد تقدم .
(٤) رواه أحمد وابن حبان والحاكم وصححه .

له ، ورجع يرجف فؤاده ، ويقول لزوجه : زملوني ، زملوني ! ويقول : لقد خشيت على نفسي !

اننا نخالف الامام أبا حامد الغزالي هنا في اعتباره الكشف أمرا يطلب ، والحقيقة انه امر يوهب ، ونحن المسلمين لم نؤمر بطلب الكشف وانما أمرنا بطلب العلم ، وقد جاءت الاحاديث ناطقة بان طلب العلم فريضة على كل مسلم ،ومن سلك طريقا يطلب فيه علما ، سهل الله له طريقا إلى الجنة ، وان الملائكة تضع اجنحتها لطالب العلم رضا بما يصنع ، ولم يجيء شيء من ذلك لطالب الكشف .

واذا كانت النصوص قد جعلت النور والهداية والفرقان ثمرات للعبادة والتقوى والاخلاص لله تعالى ، بوصف ذلك مثوبة عاجلة من الله تعالى في الدنيا لعباده المتقين، فهذا فيمن عبد الله واتقاه مخلصا له الدين ، مبتغيا وجهه ومرضاته قياما بحق عبوديته ، أما من جعل الغاية من عبادته ان تكشف له المساتير ويقوده الالهام في كل شيء ، فهو في الحقيقة لم يخلص العبادة لربه ، انما هو يطلب حظ نفسه !

ولقد صدق ما ذكره احد المحققين عن بعض المتعبدين الذي حبس نفسه للصيام والقيام والتعبد أربعين يوما ، رجاء ان تتفجر الحكمة من قلبه على لسانه ، كما جاء ذلك في بعض الأحاديث فيمن اخلص لله اربعين يوما ، فلما مرت الاربعون يوما لم ير اثرا للحكمة التى ركض وراءها ، واطال العبادة من أجلها .

وعندئذ سأل أحد العلماء الربانيين عن مصداقية الحديث أو الاثر المذكور ؟ فقال له العالم : الحديث فيمن اخلص لله وحده ، وانت لم تخلص لله ، انما أخلصت للحكمة !

وما ذكره الغزالي رحمه الله من هذا النوع ، فهم لا يخلصون لله ، انما يخلصون للكشف !

ثالثا : ان هذا الطريق الذي وصفه الغزالي وامتدحه ورفع من قدره ، وأثنى على أهله ـ طريق شديد الوعورة ، عظيم الخطورة ، كثير المنعطفات والمنحدرات ، جم الحفر والمهاوي ، قلما يجد فيه سالكه منارات تهديه وعلامات تدله ، لان المنارات في علم الشرع وقد تركوه ، والعلامات في ميراث النبوة وقد اهملوه .

وقد ذكر الغزالي اعتراض النظار وذوى الاستبصار على طلاب الكشف الصوفي بنحو ذلك ولم يرد عليهم بشيء ، مما يومىء إلى ان اعتراضهم له وجهه ، وكلامهم في محله . قال :

واما النظار وذوو الاعتبار ، فلم ينكروا وجود هذا الطريق وامكانه وافضاءه إلى هذا المقصد على الندور ، فانه أكثر أحوال الانبياء والاولياء ، ولكن استوعروا هذا الطريق واستبطؤوا ثمرته ، واستبعدوا استجماع شروطه . وزعموا أن محو العلائق إلى ذلك الحد كالمتعذر ، وان حصل في حال فثباته أبعد منه ، اذ أدنى وسواس وخاطر يشوش القلب وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « قلب المؤمن أشد تقلبا من القدر في غليانها »[1] . وقال عليه أفضل الصلاة والسلام : « قلب المؤمن من بين أصبعين من أصابع الرحمن »[2] .

وفي أثناء هذه المجاهدة قد يفسد المزاج ويختلط العقل ويمرض البدن ، واذا لم تتقدم رياضة النفس وتهذيبها بحقائق العلوم ، نشبت بالقلب خيالات فاسدة تطمئن النفس إليها مدة طويلة إلى أن يزول وينقضى العمر ، قبل النجاح فيها . فكم من صوفي سلك هذا الطريق ، ثم بقى في خيال واحد عشرين سنة ، ولو كان قد أتقن العلم من قبل لانفتح له وجه القياس ذلك الخيال في الحال ، فالاشتغال بطريق التعلم أوثق وأقرب إلى الغرض . وزعموا أن ذلك يضاهى ما لو ترك الانسان تعلم الفقه ، وزعم أن النبى صلى الله عليه وسلم لم يتعلم ذلك وصار فقيها بالوحى والالهام من غير تكرير وتعليق ، وأنا أيضا ربما انتهت بي الرياضة والمواظبة إليه . ومن ظن ذلك فقد ظلم نفسه وضيع عمره ، بل هو كمن يترك طريق الكسب والحراثة رجاء العثور على كنز من الكنوز ، فان ذلك ممكن ولكنه بعيد جدا : فكذلك هذا . وقالوا : لا بد أولا من تحصيل ما حصله العلماء وفهم ما قالوه ، ثم لا بأس بعد ذلك بالانتظار لما لم ينكشف لسائر العلماء فعساه ينكشف بعد ذلك بالمجاهدة[3].

رابعاً : ان هنا سؤالا مهما ، وهو ما الحكم اذا جاء الكشف بما يخالف ما جاء به الشرع ؟ ماذا يصنع صاحب الكشف ؟ ايصدق كشفه والهامه ام يصدق ما جاء به قرآنه الذي لا يكذب ، ونبيه الذي لا ينطق الهوى ؟

ان بعض الصوفية يعتبرون ما ثبت بالكشف من باب علم اليقين ، بل عين اليقين ، بخلاف ما ثبت بالشرع فهو من باب الترجيح والظن ، لما زعمه من زعمه ـ ان الدلالات اللفظية تعتريها احتمالات كثيرة تخرجها من دائرة اليقين .

---

(١) قال الحافظ العراقي : اخرجه احمد والحاكم وصححه من حديث المقداد بن الأسود .

(٢) اخرجه مسلم من حدث ابن عمر .

(٣) احياء علوم الدين جـ ١ ص ٢٠ .

حتى الغزالي يقول : ان ما يتعلق بعلم المكاشفة لا يجوز ان يودع في الكتب ، أو يصرح به ، وبومىء إلى ان فيه ما قد يعارض محكمات الشرع وبينات الدين ، حتى انه في آخر كتبه « منهاج العابدين » استشهد بابيات نسبوها إلى الامام علي زين العابدين بن الحسين بن علي رضي الله عنهم يقول فيها :

يـا رب جـوهـر علم لـو ابـوح بـه لقيـل لى أنت ممن يـعبـد الـوثـنـا !
ولاسـتحـل رجـال مـسـلمـون دمي يـرون اقبح مـا يـأتـونـه حسنـا !

فما الذي يجعل هؤلاء يستبيحون دمه لولا أن هناك مخالفة صريحة لما هو ثابت من الدين بيقين ؟!

خامساً : نريد ان نوجه إلى شيخنا ابى حامد الغزالي عدة اسئلة حول الطريقة التي ذكرها للوصول إلى الكشف :

أ ـ هل هذه الطريقة التي وصفها الامام الغزالي هي طريقة الصحابة والتابعين ؟ وهم خير هذه الأمة وسادتها وخير قرونها ؟ ومن من الصحابة وتابعيهم باحسان فعل ذلك ؟! أما والله لو فعلوا ذلك ما فتحوا الفتوح ، ولا نشروا رسالة الاسلام في العـالمين ، ولا نقلوا لنا القرآن ، ولا رووا السنن ، ولا فقهوا الناس .

ب ـ ثم كيف اعتبر الامام الغزالى ان مما يفرق الفكر ، ويبعد القلب عن الاستغراق المنشود : تلاوة كتاب الله تعالى ، وقيام الليل وغيرها من صلوات النوافل ، وقراءة تفسير كلام الله ، أو احاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهذه انما هي مفاتيح الهدى ، ومصابيح الدجى ، وما عداهـا لا يؤمن فيها الخلط والـدخل ، وكيـد الشيطان .

جـ ـ واذا كان أبو حامد الغزالي رحمه الله يذكر ان التقوى هى مفتاح الهداية ، ومصدر النور والفرقان للقلب ، وسبب اخراجه من الشبه والمشكلات ، فهل التقوى الا اتباع ما جاء به القرآن والسنة ؟ وهل هناك هدي خير من هدي محمد صلى الله عليه وسلم ؟ وهل هناك منهج أو سنة أفضل من سنته وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعده ؟ وقد انعقد الاجماع على ان كل خير في اتباع من سلف ، وان كل شر في ابتداع من خلف .

د ـ وهل هذا السلوك يتفق هو ومنهج الاسلام ، الذي يتميز بالشمول والتوازن والاعتدال ، لانه المنهج الوسط للامة الوسط ؟

ان الاسلام دعوة عالمية ، جمعت بين الدنيا والآخرة ، بين الروح والمادة ، بين العلم والايمان ، بين العقل والقلب ، بين حق الله وحظ النفوس ، والدليل على هذا من الآيات والاحاديث وهدي السلف أكثر من أن يحصر .

فأين هذا مما وصفه الامام الغزالي هنا ؟

هـ ـ ولم كل هذا العناء ؟!

في انتظار فيض قد يحدث مثله لمن مارس رياضة النفس وعاناها من أهل أي دين كان .

ولفقراء الهندوس الوثنيين ، ورهبان النصارى الضالين في هذا الباب عجائب وقصص تحكي وتتناقل .

فهل هذه النتيجة هي غاية المنتهى التي ينشدها المتصوفون ؟

سادسا : ونزيد على هذا التساؤل أمورا ايجابية ذكرها الامام ابن تيمية في مناقشته لهذا الأمر ، منها :

و ـ أن الانسان اذا فرغ قلبه من كل خاطر ، فمن أين يعلم ان ما يحصل فيه حق ؟ هذا اما أن يعلم بعقل أو سمع ، وكلاهما لم يدل على ذلك .

ز ـ ان الذي قد علم بالسمع أو العقل انه اذا فرغ قلبه من كل شيء حلت فيه الشياطين ، ثم تنزلت عليه الشياطين ، كما كانت تتنزل على الكهان ، فان الشيطان انما يمنعه من الدخول إلى قلب ابن آدم ما فيه من ذكر الله الذي أرسل به رسله ، فاذا خلا من ذلك تولاه الشيطان . قال الله تعالى : « ومن يعش ذكر الرحمن نقيض له شيطان ، فهو له قرين ، وانهم ليصدونهم عن السبيل ، ويحسبون أنهم مهتدون » (الزخرف : ٣٦، ٣٧) .

وقال الشيطان فيما أخبر الله عنه : « فبعزتك لاغوينهم أجمعين ، الا عبادك منهم المخلصين » (ص : ٨٢، ٨٣) وقال تعالى : « ان عبادي ليس لك عليهم سلطان

الا من اتبعك من الغاوين » (الحجر : ٤٢) . والمخلصون هم الذين يعبدونه وحده لا يشركون به شيئا ، وانما يعبد الله بما أمر به على ألسنة رسله ، فمن لم يكن كذلك تولته الشياطين .

وهذا باب دخل فيه أمر عظيم على كثير من السالكين ، واشتبهت عليهم الأحوال الرحمانية بالأحوال الشيطانية ، وحصل لهم من جنس ما يحصل للكهان والسحرة ، وظنوا ان ذلك من كرامات أولياء الله المتقين ، كما قد بسط الكلام على هذا في غير هذا الموضع .

حـ ـ ان هذه الطريقة لو كانت حقا ، فانما تكون في حق من لم أته رسول ، فأما من أتاه رسول وأمر بسلوك طريق ، فمن خالفه ضل . وخاتم الرسل ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد أمر أمته بعبادات شرعية من صلاة وذكر ودعاء وقراءة ، لم يأمرهم قط بتفريغ القلب من كل خاطر وانتظار ما ينزل !

فهذه الطريقة لو قدر أنها طريق لبعض الانبياء لكانت منسوخة بشرع محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ فكيف وهي طريقة جاهلية لا توجب الوصول إلى المطلوب الا بطريق الاتفاق ، بأن يقذف الله ـ تعالى ـ في قلب العبد الهاما ينفعه ؟ وهذا قد يحصل لكل أحد ، ليس هو من لوازم هذه الطريق .

ولكن التفريغ والتخلية التي جاء بها الرسول أن يفرغ قلبه مما لا يحبه الله ، ويملأه بما يحبه الله ، فيفرغه من عبادة غير الله ، ويملؤه بعبادة الله ، وكذلك يفرغه من محبة غير الله ، ويملؤه بمحبة الله ، وكذلك يخرج عنه خوف غير الله ، ويدخل فيه خوف الله تعالى ، وينفى عنه التوكل على غير الله ، ويثبت فيه التوكل على الله . وهذا هو الاسلام المتضمن للايمان الذي يمده القرآن ويقويه ، ولا يناقضه وينافيه ، كما قال جندب وابن عمر : « تعلمنا الايمان ثم تعلمنا القرآن ، فازددنا ايمانا » .

وأما الاقتصار على الذكر المجرد الشرعي مثل قول : « لا اله الا الله » ـ فهذا قد ينتفع به الانسان أحيانا ، ولكن ليس هذا الذكر وحده هو الطريق إلى الله ـ تعالى ـ دون ما عداه ، بل أفضل العبادات البدنية الصلاة ثم القراءة ثم الذكر ثم الدعاء[1]

---

(١) من مجموع فتاوى شيخ الاسلام ابن تيمية : المجلد ١٠ ص ٣٩٩ .

اللهم الهمنا رشدنا ، وارزقنا نورا نمشي به في الظلمات ، وفرقانا نميز به بين المشتبهات ، وايمانا يكون لنا منارا في مفارق الطرقات ، وجنبنا الانخداع بضلال الشبهات وغواية الشهوات ، واهدنا صراطك المستقيم « صراط الذين انعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين » آمين .